
صابون تازة
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
رواية
الطبعة الثانية
إبراهيم الحجري
روافد
للنشر والتوزيع

صابون تازة

الحجري، إبراهيم
صابون تازة/ إبراهيم الحجري
روافد للنشر والتوزيع. 2015 ط ثانية، القاهرة
183 ص ؛ 21 سم
1-رواية
2-العنوان
أ – المؤلف
رقم التصنيف: 813.008

رقم الإيداع: 23223 /2014
الترقيم الدولي 0- 082- 751 -978-977 :.I.S.B.N



روافد للنشر والتوزيع

تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

إبراهيم الحجري

صابـون تـــازة

(إقامة حُلميّة في جحيم الحمْقى)

رواية

الفصل الأول:

أصل الحكاية:

لست أدري لماذا استيقظت في ذهني تلك الحكاية التي قصّها علي والدي مثل الخرافة قبل عشرين سنة من وفاته. ولست أدري لماذا أصبحت، الآن، متيّما بما يشبه حبّ الفضول لمعرفة تلك القرية الأسطورية التي كان يحكي لي عنها بحنين؟! كان يحكي وعيناه تكادان تفيضان بالدموع، وكنتُ أنا- آنذاك- لا أفهم معنى الحنين، ولا أستطيع قراءة ملامح والدي وهو يحكي، فقط كنت أظنه يريد تسليتي بتلك الحكايات المذهلة عن أناس عاشوا وماتوا، وعن قرية دُمّرت عن آخرها، ولم يُترك منها سوى الأنقاض! كان أبي، أثناء حكيه، يوحي بأن ذلك وقع في زمن مضى.

كان أبي، آنذاك، صغير السنّ، لذلك، أسعفته ذاكرته على التقاط التفاصيل الصغيرة جدا لتلك الأحداث التي وقعت ذات مساء ماطر. وحينما كان الأب السارد يتوغل في الحكاية المستعادة هاته، كان يتنحّى عن وجهي جانبا، ويتجه صوب المجمر، ويبدأ يحرك الجمر تحت المقراش، ليزيد تأجيج النار تحته. كانت ملامحه تضطرب، وكأنما هو في حالة بوح وشكوى، كمن يحس بظلم جسيم لحق به، وهو صغير، فكبر معه ذلك الظلم وتحول إلى ما يشبه الفقد.

يرفع المقراش، الذي كانت سنبلة البخار تتصاعد من فوهة علبوبه* ويفتح غطاء البراد الألمنيومي البلدي ثم يفرغ الماء ببطء ونشوة، وعرق دقيق يتفصد من جبينه البرونزي الذي ترتسم فيه خطوط متوازية من التجاعيد، يضع البراد على المجمر الملتهب ثم ينهمك في تسخين يديه المتشققتين. يقول، دون أن ينظر إليَّ، وكأنما يحكي لقاض رباني يرجو إنصافه.

وكنت أحس، في قرارة نفسي، أنني أصغر بكثير من أن أتبوأ عرش المتلقي لهذه المحكيات القاسية! لم أكن ناضجا، ذلك الوقت، لأستشعر الذي يحكيه والدي عن ذلك الزمن. وكنتُ، ذاك الزمن البارد، أرى المحكي ذاك مجرد خرافات نتسلى بها مثل الذي تحكيه لنا الجدات:

- "كان الوقت صعبا يا ولدي، وليس كما هو الآن، كان الأمن ضعيفا، وكانت النعرات القبلية مشتعلة. وكان القوي يأكل الضعيف. وكان الفقر ضاربا بأطنابه على العباد: الجوع والقهر والعري. كنا نسكن أكواخا من التبن. وكانت الأمطار تسقط بغزارة أكثر من اللازم. وكان البرد قارسا. ومع ذلك، كانت بنية الناس قوية، وكانوا شديدي التحمل والبأس، عكس ما هو سائد الآن، كل شيء متوفر: الأطباء، العيادات، الصيدليات... ومع ذلك، فالناس كلهم مرضى، هزيلون، يشكون الوهن والمرض، ضعيفو التحمل لا يقوون على شيء!

---

* العلبوب بالدارجة المغربية؛ هو فم المقراش أو البراد أو الإبريق.

آنذاك، كنا نطحن الدقيق في الرّحى الحجرية. وكنا لا نأكل سوى اللبن والشعير والقمح والزبدة وحليب البقر. كانت معيشتنا وقوتنا من الطبيعة. كانت، يا ولدي أيامنا وعرة، لكنها كانت جميلة، تذكر بالأحباب ومجامعهم والأصحاب وأيامهم، والرجال ومواقفهم... الآن، لم يعد هناك رجال ولا مواقف، ما بقي غير الشطار والمنافقين واللصوص والمحتالين. المهم، يا بني، كانت القبيلة مطمئنة، وكان السّكان مطمئنين، مع بساطة عيشهم، قانعين بعيشتهم المتواضعة، يحرثون الأرض ويملؤون مطامرها بالمحاصيل المتنوعة: قمح، شعير، ذرة، فول، حمص.

وكان الناس، بعد انتهاء جمع المحاصيل، كعادتهم يقيمون وليمة ضخمة تشبه موسم مولاي عبد الله أمغار الآن، تضجّ ساحة القبيلة بالولائم ورقص المغنين، وركض الخيل، ويحج إلينا، من بعيد، الشيخات والشرفاء، وعبيدات الرمى وهلم جرا... وكان أمر القبيلة يُسند إلى رجل وقور يُدعى "شيخ الرمى"؛ كانت له مهابة وقداسة لدى أهل القبيلة، هو الذي يُستشار في كل أمور القبيلة وقرارات الأسر، ويبث في أمور كثيرة. وكان من العادي أن تنشب حروب صغيرة بين القبائل. وكان لكل قبيلة محيطها وحرمتها الخاصة التي يجب ألّا تنتهك ولا تمسّ. كانت الحروب تقوم بالعصيّ والحجارة والسّيوف. وكان الرّصاص قليلا، ولا يجيد استعمال البنادق سوى قلة محسوبة على أطراف الأصابع، كان يشتهر من قبيلتنا عشرة رماة يصوّبون، فيصيبون القلة فوق رأس المرأة، وهي على مسافة بعيدة. وكنت وأنا صغير أسمع عن قتل الرجال السبعة، الإخوة الذين قهروا العساكر الفرنسية المحتلة، التي حاولت كثيرا أن تلقيَ عليهم القبض دون جدوى، وأهدرت

الكثير من الدماء، قبل أن يأخذهم المستعمر بالوشاية والتجسس، إذ باغتوهم، لما استنفذت ذخيرتهم من الرصاص، فذبحوهم سبعتهم، ووضعوا رؤوسهم في شواريات (أكياس من الدوم) وطافوا بهم القبائل المجاورة، ودمهم يسقي الأرض المقدسة.

لما قتلوهم -قتلوا فينا البطولة- ثار الغضب في نفوسنا، والواقع أنهم كانوا يتّخذون في قلوبنا -كأطفال- موقعا رفيعا، وإن ظلوا طيلة الوقت بعيدين عنا. وبعد مدة، جاء الفرنسيون، ومعهم مغربي وبصحبتهم أجنبية. كان واحد منهم يتكلم الفرنسية -لم نكن نفهمها- ويخطب على القبائل التي جُمعت عنوة، لتتلقى الأوامر، وهدّدونا جميعا بأن كلّ من خالف أمر هذا القائد -ذي الأصل المغربي- سيحصل له ما حصل لأولاد انعام السبعة، ووعدونا في الوقت نفسه -في حالة التعاون معهم- بأنهم سوف يضمنون لنا حياة أفضل ويزيحون عنا الفقر والجهل والتخلف، وبعد مرور أعوام، جهّزوا قصرا للقائد بوشعيب، وهيّؤوا له الطرق والسبل للثورة، وسخّرونا له خدَماً، نحْرث الأرض، ونتعب، فيما يؤول إليه كل المحصول، ازداد فقرنا وساءت أحوالنا، ولم تتحقّق من وعود الغزاة سوى خراب الأنفس والجسوم.

ومع تفاقم الأحوال، وانهزام الحلفاء ومنهم فرنسا أمام جراد هتلر، ازداد جشع المعمرين، أخذوا كل ما نملك من أجل تأمين حاجات الجنود والعساكر، فاستبد الجوع بأهل القبيلة، ومات الشيوخ من الأسى وسوء الرعاية، وهبّ الناس للقائد يهدونه الأرض، مقابل الخبز، فأصبح جلهم بلا أرض، وما عاد أمامهم سوى أن يبكوا دما ويغادروا ليلا،

دون ضجيج في ذلة وهوان، وهزم مرضُ الكوليرا اللعين ما تبقّى من رجال القبيلة. كلّ من مرض به لا يتجاوز نصف نهار، أصبحت القبيلة تودع رجالها بالعشرات يوميا، وأحسّ الناس أن القبيلة تؤوب صوب نهايتها، وفكرتُ أنا وعباس، أن نهرب من العدوى، ودبرنا حيلة للخلاص والفرار، اقترحتُ أن نكمن في طلح القائد، ونركب خلسة "الشاريو" إلى خارج القبيلة، لأن الحصار كان مضروبا على عناصر القبيلة حتى لا تذيع العدوى. وذاك ما كان، اختفينا تحت الخنازير التي كانت تبول علينا، وصبرنا لرائحتها الكريهة. كنا نعرف أن أي بلاد نذهب إليها ستكون أحسن من القبر الذي كنا نعيش فيه، رغم أننا نحب الأرض ونعشقها– يا بني– المهم كدحنا في كازا واشتغلنا بعرق أكتافنا كي نتدبر أمرنا وأمركم فيما بعد: العربي مرض ومات رحمه الله، أما أنا وعباس فجمعنا بعض المال، فاقترحتُ على عباس أن نشتري مسكنا، ونعيش فيه مثل باقي الناس ونتزوج ونلد ونحيا كما شاء الله، غير أن عباس أصر على العودة، أما أنا فلم أستطع ذلك، قرّرت أن لا أعود في هذا العمر لأموت حنقا بالذكريات السّود، ذكرى الأرض والرجال الذين ماتوا قهرا، والأم والأب اللذين تركتهما بين مخالب الموت ورحلت... ووَو...

ومع ذلك، يا بنيّ، تظل رائحة الأرض تجري في عروقي لن أنساها حتى بعد الموت".

كنتُ أتحاشى النظر إلى قسمات وجهه أثناء الحكي، لأنني كنت عاجزا حتى عن بعث روح الطمأنينة في نفسه. كان يحكي ويكرر الحكي، ولست أدري لماذا كان يحكي لي، أنا بالضبط، هذه التفاصيل!؟

كان يحكي بإصرار وتذمر وتأثر، رغم أنه كان يعلم أنني مجرد طفل صغير لا يفهم في هذه الأمور، وغير قادر على أن أنتقم له أو أعيد له الاعتبار. فأغلب الناس الذين شاهدوا الوقائع ماتوا أو تاهوا أو رحلوا بعيدا صوب مناطق مجهولة. ولم يعد لهذه الأحداث، مهما بلغت مأساويتها، من وجود سوى في ذاكرة والدي!

كان بإمكان والدي أن يحكي هذه القصة المؤثرة لأخي الأكبر مثلا! فقد كان في سن تسمح له بمناقشة هذه الأمور المستعصية وتمنحه إمكانية التخفيف عنه على الأقل، لكنّ أخي كان قليل التردّد على البيت. كان مشغولا بالدراسة ومطاردة الفتيات الجميلات والعناية بمظهره وشَعْره، حتى أننا كنا نشك في رجولته أحيانا. كان لا يأتي إلى البيت إلا ليأكل ثم ينام، وحينما يأتي، لا يجالسنا، يذهب مباشرة إلى غرفته دون أن يلقيَ التحية.

كانت أمي تحفظ طباعه عن ظهر قلب، لذاك، وكما لو كانت تتواطأ معه، كانت تضع في غرفته الطعام والشراب وكل ما يحتاجه حتى لا يثور في وجه الجميع مثل ثور شرس. ربما لهذه الأسباب، كان أبي يصر على أن يحكي لي أسطورته مرارا قبل أن ينام، معتقدا أنه بفعله ذلك، كما لو كان يحكي مأساة قومه للعالم أجمع. المهمّ أنني كنتُ أحسّ أنه يرتاح مؤقتا، قبل أن تستفيق فيه تفاصيل الضيم، من جديد، بعد لحظات. كانت أمي المغرقة بمدينيتها، تفضّل ألّا تشغل بالها بتفاصيل الخرافة هذه. وكانت تعتبر هذه الوقائع مجرد هلوسات لن ينفع ذكرها، فتنهر الوالد، وتصده عن الحكي، وتقول له:

- لعلك بدأت تفقد عقلك، علينا أن نحملك إلى بويا عمر أو برشيد لتعالج من نوبات المس! أنت لم تغفل عن حكاية المرض هذه لحظة واحدة، وكأنك تحكي لنا عن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد... كان المسكين يسمع لهذه السخريات بمرارة، وهو يحك شعره قرب أذنه اليسرى، وكان كلما شعر بحرج أو ضيق يفعل ذلك، ويتلفت جهة الباب. في مقهاه الشعبي الصغير بكريان حي المسيرة، الذي يديره الشياظمي البدين "بوجمعة"، حيث يجالس أصدقاءه، كل | مساء، بعد العودة من المرسى وصلاة المغرب، فيثرثرون ويشربون الشاي بالشيبة، ويدخنون التبغ الرخيص والكيف، ويتنشقون "النفحة" ويتكلمون عن النساء، وعن المغامرات والفروسيات البائدة، ويلعبون الكارطة والضامة والرامي... أصدقاء والدي كانوا من جميع الأجيال: شيوخ، شبان، متوسطو الأعمار، لصوص، شحاذون، قطاع الطرق، فقهاء، منافقون... كلهم كانوا يجدون فيه الرجل الذي ينفس عنهم ضيم الأوقات، يحكي لهم النكات، ويسرد عليهم قصص ألف ليلة وليلة والأزلية وأوديب وغيرها بطرق مختلفة حفظها عن البهجة وبقشيش أباطرة الحكي الشعبي بساحات الحلقة الشعبية الشهيرة في القريعة وسوق الأربعاء، وتيط مليل والقيسارية والشطيبة وليساسفة وسنطرال.

كان يسليهم ويفرج عنهم ويفتي عليهم المشورات، ويوزع عليهم الحب والبسمات دون كلل، الذي لا يجد تدخينا يضع أمامه علبة السجائر والمطوي، المغموم ينفس عنه بإدخال البهجة إلى نفسه،

الحائر يجد عنده الخبر اليقين، المذنب يضع عنه حمله... كلهم كانوا ينادونه "عمي الكريش"، لُقِّبَ بهذا اللقب، لكونه كان دائما يحمل ريالا كبيرا أزرق، ويداعبه بين أصابع يده اليسرى، بحيث لا يبرحه. ذاك الريال —آنذاك- كان يدعى "القرش" ثم صُغِّرَ لقبه للتحبيب.

لكن لست أدري لماذا لم يكن يقص عليهم حكايته تلك التي كان يهشم بها رأسي كلما جالسته؟ لم يحرمني من أزلياته وحكاياه ونكاته التي يؤنس بها الآخرين؟؟ لقد ظلت تلك الأسئلة تكبر معي وتؤرقني، ومع مرور الوقت، وتنامي وعيي بالأشياء والوقائع، بدأتُ أدركُ بعض الإشارات وأتقصّى تأويل بعض الأمور. وأنا أكبر، كنت أُدوّر تلك الحكاية في دماغي، وأحركها يمينا ويسارا وأطبخ بها دماغي لحظات الوحدة، بل، فيما بعد، أصبحتُ أتعمّد العزلة لأفكر وأدبر. وزاد من حرقة هذه القصة أنَّ آخر كلمة كان يرددها والدي، وهو يحتضر، هي:

- "يا بني زُرْ كطرينة"....

كان يقولها بعسر وهو ينظر إلي كأنما يعنيني بالقول. لفظ أنفاسه بين يديْ الفقيه "شعبوقة" صديقه، وعيناه تبحثان عني في زحمة المشيّعين والزائرين، زهقت روحه، وحكايته تؤرقه بالقدر الذي تُحفّزُ فيَّ رغبة الكشف والاستطلاع والرحيل صوب الأرض التي عشقها ومات، وهو يحنُّ إليها بجنون.

مات الوالد الشيخ وفي نفسه شيء من "كطرينة". وضع الصخرة من على ظهره وحمَّلني إياها، وأنا مازلت صغيرا طريا مثل عود الزيزفون.

الفصل الثاني:

نشوء القضية:

مات والدي، ونبت على قبره كثير من الشوك والزهور. كنتُ أزوره خلال فترات متقاربة. وكل مرة أجده في حال: مرة مخضرا، ومرة مصفرا، ومرة لا لون له... يتغير القبر تبعا للفصول وتقلبات أحوال الطقس. ولولا أني كنت أحفظه عن ظهر قلب لأشكل علي أمر العثور عليه، فيما بعد، في مقبرة الشهداء بحي الشطيبة المحاذي للطريق السيار. لقد انضافت قبور كالنمل، وسقطت على القبور أمطار كثيرة. وتهدمت القبور -في مجملها ومن بينها قبر أبي- ولم تعد ملامحها تبرز للعيان. تساقطت جوانبها وغاصت حوافها في الأرض. القبور طبقات، الطبقة البورجوازية الراقية المعزولة في ركن خاص، المزينة بالزخرف والزليج والشواهد المكتوبة بخطوط جميلة، والطبقة المتوسطة، وهي قبور مبنية ومحمية بالإسمنت العادي ومكتوبة شهاداتها بشكل بئيس، أما الطبقة الثالثة فهي قبور منكوبة: لا إسمنت، ولا زليج ولا خطوط... مجرد حفرة تغطيها الحجارة والتربة البيضاء، فيما بعد، تضيع التربة، وتختفي الحجارة، ويضيع القبر. ربما يصير مجرد علامة في الذهن.

كنت آتي أزور قبره بانتظام، فأسقيه ماء، وأجلس بقرب رأس والدي، أتلو آيات وأبكي، أقرأ دعوات، وأنا أضعُ يدي على التُّراب، ولما أنتهي، أطلبُ من والدي الميت أن يحكيَ لي حكايته المعهودة

التي، لكثرة ما ترددت على أسماعي، حفظتها وأحببتها وكبرت معي، فعدت أعتبرها أكثر من حكاية، اعتبرتها، مع مرور الوقت، سؤالا مقلقا، وبدأتُ أتلمس خيوطا لهذا السؤال، وغدت فخاخه تستدرجني صوب متاهة حقيقية. وانتابني فضول هُجاسي لمعرفة مسارب هذه الحكاية، أو، على الأقل، أزور هذه البلدة المسحوقة، وأنقب في رسومها وأطلالها، عما يشي بقوة الوحشية، وما يثبت قسوة الحكاية. لو قدر لي أن أكون قويا أكثر من اللازم. لفعلت ما فعله أبناء القائد عيسى بن عمر حينما حفروا قبره وأعادوا رفاته إلى أم الرأس، ونقلت تربة والدي إلى البلدة التي مات، وفي نفسه شيء منها. ليتني أستطيع! أخي الأكبر مشغول بنفسه، وبهندامه وبتفاهاته الصغيرة، وأمي مشغولة بحزنها ومرضها (السكري)، وأنا ما زلت متعلقا بسراب الدراسة والبحث عن العمل.

غدا أو بعد غد، سأتم أطروحتي، وبعدها أجد عملا، أيَّ عمل، وأباشر، بعد حين، هذه المهمة، وأتتبع خيوط الحكاية، الحكاية التي حكاها لي والدي رحمه الله، لا داعي للعجلة –كما قال الأولون– لكل شيء أجله. لما مات أبي ورّثني أرقه، فبت، أنا أيضا، أهذي، وأعيش على كابوس "كطرينة" البلدة الأم التي لم أعرفها أنا إلا على سبيل الافتراض والتوهم، فيما عاشها والدي كذكرى أليمة، أنا الآن– والعهدة عليَّ– أجد في نفسي إصرارا كبيرا لمعرفة هذه القرية المهدومة، أريد فحسب أن أستمتع بجرح الذكرى التي باتت تؤرق والدي سنين طويلة، وأريد أن أعرف مصير "عباس" الذي فضّل العودة إلى هناك، وأريد أن أصل الرحم، وأتسلق شجرة السلالة التي تلحق الفرع

بالأصل، واشتمَّ رائحة الأرض البورية المباركة التي غرستْ في أبي عشقها الكبير، فظل فلاحا، حتى وهو في كبريات المدن، حتى وهو لا يملك شبرا من الأرض!

كان أبي أيام فراغه يذهب خارج المدينة راكبا دراجته الهوائية، ولما يصل إلى الحقول المحروثة، يجلس القرفصاء ويسجد، ثم يقبل الأرض، وربما يبكي، ويظل مدة من الزمن ممددا على التربة الباردة ينعم برائحتها، ويعود في المساء مبتهجا، كأنما زار بلدته "كطرينة"! أبي، كان هذا دأبه، محبا للأرض، بالرغم من المواجع التي تجلد ظهره لما يذكرها، وبالرغم من الألم الذي يسببه له مجرد ذكرها.

- لم أكره العودة إلى "كطرينة" يا ولدي، ولكن أنت عارف كيف يمكن للمرء أن ينسى القهر والجوع والمرض والموت الذي أهلك الأهل والأحبة، وينسى الفقر الذي سببه لنا طغيان الغزاة وغطرسة القائد العميل الخائن الجشع... والله يا ولدي ما أقدر أعيش بقية عمري وجها لوجه أمام هذه المواجع.

أما أنا فلي القدرة على مجابهة هذه الأمور، أنا سأعود إلى البلد، وأشتم تربتها، وربما أشتري بها بقعة وابني بها بيتا لأزورها، كلما اشتدَّ بي الحنين الذي ورّثني إياه أبي، وأنا صغير، ذاكرتي حبلى بصور الموت والفقر والضياع، أستطيع أن أتلمس تفاصيلها ملمحا ملمحا، وألم شتاتها شذرة شذرة، لم يعد هناك ما أخاف منه: القائد المتغطرس العميل هجر المنطقة خائبا بعد رحيل المستعمر الغاشم نافضا يديه من سلطة لا شرعية، هاربا من جلده بمال مسروق وجاه ذليل، والكوليرا

انسحب بعد أن حصد أرواحا كثيرة، ولا أحد سوف يكتشفني غير "عباس"، هذا الذي سيكون دليلي في هذه المسارب الوعرة، عباس لم أره قط! ولكني سأبحث عنه، أتمنى أن يكون باقيا على قيد الحياة، وأن لا تكون الشيخوخة قد خربت ذاكرته، أنا أعرف، بالضبط، المكان الذي توجد فيه "كطرينة" العجيبة، أعرف أنها قريبة من مدينة الجديدة، وأنها تندرج ضمن دائرة أولاد فرج الهلالي، قريبا من زوايا بن حسين وأبي يعزي بنور ومولاي بوشعيب وسيدي عياد السبع، وسيدي أحمد الأفحل، ويجري غير بعيد منها وادي أم الربيع. المسافة غير بعيدة، لكن ينقصني المال وسيارة ومزاج صاف!

اشترى أبي، بعد أن اختار البقاء بالدار البيضاء، بما يملك من مال كوخين قصديريين بكريان سنطرال، وتزوج أمي "الزاهية" الفتاة البربرية التي تنحدر جذورها من الريف. كانت تشتغل خادمة لدى عائلة ثرية تقطن بشارع الحزام الكبير، رآها أبي أول مرة بسوق السلام وهي تقتني الخضر والفواكه، فتبادلا نظرات الإعجاب، ودخلت قلبه من أول وهلة، تلك النظرة هي التي سحبت حيرته بين البقاء والعودة، وهي التي جعلته يحسم أمر حكايته، وهي التي جعلت "عباس" يعود دون صديقه، ويفقده إلى الأبد، تلك النظرة المحفوفة ببسمة من نوع خاص، من النوع الذي لا يتكرر، المرأة لا تطلق تلك النظرة، ولا تصدر تلك البسمة إلا إذا صادفت نظيرها، الشخص الذي تحسُّ أنه قدرُها الذي لا فكاك منه، باختصار وعكة الحب التي ألمت بأبي هي التي صنعت حكايته بهذه الكازابلانكا، وهي التي فرقت رفيقيْ رحلة الهروب من الموت. أبي كان يقول إن عباس رجل طيب، صديق لا

يجود به زمان، صديق لا تكرره الصدف، صداقة ثلاثين سنة، ليست سهلة، ليس سهلا أن أنسى عباسا التوأم والأخ والصديق، كان يقول:" أتمنى أن يتزوج عباس، ويسعد في آخر أيامه بأولاد وبنات، لقد شقي المسكين في صغره، وكتب بعرقه ودمه سيرة حافلة من المحن والبصمات".

وأنا أقول، الآن، بعد وفاة والدي بعقد من الزمن، آمل أن ألتقي عباسا، عباس الذي أحببته من خلال حكايات والدي عنه، ومن خلال حبّ والدي له، أتمنى أن أجد عباسا دليلي إلى متاهة "كطرينا" المغتالة، وأن أستمتع بطرائفه القديمة، وأن أعرف أكثر عن أبي من خلاله، أبي الذي نفهمه كما يحب، أبي التجربة التي لم أستفد منها، هو كان يخجل أن يكشف لنا قناعاته، ويظهر لنا سيرته التي كان يحكي منها بعض الشذرات لزملائه في المقهى الشعبي، ويسرد بعض النتف من ذكرياته لمسامريه في ليالي الشتاء الباردة. أبي الطينة اللا مدركة في هذا الزمن (ولى أولاد الناس وما بقي غير السكاكين والمشارط) كما كانت تقول الشيخة فاطنة بنت الحسين، وهي ترثي زمان والدي وجيله! أبي يعرف فاطنة هاته، وجالسها، حسب ما روى، لأنها تنحدر من التربة التي أفرزته هو أيضا، وتفرَّج على لوحاتها الشعبية مباشرة في أعراس الدواوير، وهي، آنذاك الشابة القوية المبتدئة الباحثة عن وهج مستحيل. أنا أحب الرَّاي وأغاني الجاز وأكره الشعبي، لكن فاطنة هذه أحببتها من خلال أبي. هو الذي نبهني إلى ما يستضمره هذا الصوت من عبقرية، وما يتضمنه كلامها الفطري التلقائي من معان ودلالات عميقة. أبي الذي لم يكن يخاطبنا سوى

بالصمت. ليس هناك من يعرف أسراره إلا عباس. فعباس هذا، إن وجدته سيكون مفتاحا للحكاية التي أرقت أبي طوال حياته، وربما في ما بعد موته، طعم آخر وألوان أخرى من الإثارة! عباس الذي ذكرناه هو مفتاح الكنز الذي سَيَفُكُّ اللُّغز، لغز الحكاية، عباس، إن وجدناه معا، سيشخص لنا فرادة "كرطينة" التي لم يخلق مثلها في البلاد! عاشت وحيدة وماتت وحيدة، ولم تعد تجد لها من رمْسٍ سوى في ذاكرتي وذاكرة عباس!!

علي أن أجد عباس هذا كي تستمر حكاية "كطرينة" فمازلت أحتفظ ببعض القرائن والمؤشرات التي تدلني إليه، سيدي مسعود بن حسين، أولاد فرج، الجديدة، القائد بوشعيب، بن امعاشو، قلعة بولعوان، سيدي بهاليل... علي، الآن، ألا أستبق الأحداث. أعدكم أن أجد عملا أولا ثم بعد ذلك أرحل في هذه الحكاية المغرية...لكن تذكروا: العمل أولا بما يتطلبه من دق الأبواب بإصرار، وولوج للجمعيات، جمعية المعطلين، جمعية المظلومين، جمعية المحرومين، جمعية الحارقين والمحروقين، جمعية الموتى والأحياء، وغيرها من الجمعيات التي يزخر بها واقعنا، ولا تعولوا كثيرا على هذه الحكاية، ضعوا قلوبكم في ثلاجاتكم وناموا، ولما ينجح مشروعي السردي أعمل على إيقاظكم لنتم معا حكاية أم الرأس، أو حكاية عباس الذي بلا رأس، فقد لا أجد العمل، ولو أنني مطالب الآن بأن أعمل أي عمل بغض النظر عن الدبلوم الذي أمتلك والمستوى الذي أتوفر عليه، الوقت لا يرحم وعباس قد يرحل إلى العالم الآخر في أي وقت، فيفشل البرنامج السردي، لذا أرجوكم ساعدوني على إيجاد عمل، ليتأتى لنا استكمال

حكايتنا هذه التي ابتدأناها معا، من أجل أبي، ومن أجل عباس، ومن أجل "كطرينة"! حتى لا أضطر إلى الاعتصام مع منخرطي الجمعيات أمام البرلمان، وحتى لا أضطر إلى الإضراب عن الطعام، وليكن في علمكم أن بنيتي الجسمية ضعيفة ولا تحتمل هذا النوع من التصعيد، فعودي نحيف ومعدتي مريضة، ويرهقني السكري ووجع الدماغ، وحساسيات أخرى، وقد تشرد ضربة من هراوة بوليسي حانق لتصيب رأسي فأسقط دون حراك، فمن يكون آنذاك حريا بمتابعة هذه الحكاية الغريبة. لهذه الأسباب كلها أرجوكم ساعدوني على إيجاد عمل، أيّ عمل، يضمن لي مرتَّبه البحثَ عن سرِّ أمّ الرأس "كطرينة"... غدا تجدون إعلاني في الجرائد الوطنية.

الفصل الثالث:

الرجل البلاستيكي:

كان أخي من فصيلة "بقر علال"، لا يستطيع أن يحرك الدجاجة عن بيضها، لا قدرة له على طرح السؤال. كان تفكيره يصيبني بالغثيان، وكانت عينا أمي المرآتين اللتين يلامس من خلالهما العالم الذي يعيش فيه، وكان يؤمن بفكرة أمي التي تعتبر أبي مجرد ممسوس، مخبول، يهرطق، طيلة الوقت، بسخافات سمجة، لذا فقد تولدت لديه، منذ الصغر، كراهة والدي وأفكاره. وتنامت لديه أنوثة مفرطة أذكتها وصاية أمي، فكان شبيها بالمرأة في كل شيء...

كان أخي شديد الإعجاب بنفسه، كثير العناية بمظاهره الخارجية، وكان يكلف والدتي، بعد وفاة أبي، مصاريف زائدة، بل كان يقتسم معها أحيانا أشياءها الخاصة: الدهون، العطر... وكان يجالسها أثناء قدوم زائرات، لِولعه بمجالسة النساء، ومع مرور الوقت، أصبح ملازما لهن، وكائنا أليفا لديهن، وأصبحتُ أشكُّ، فيما بعد، في كونه يمتلك شيئا من الرجولة! ولعل أمي باتت تبحث له عن عريس ما، المهم لا علينا، لم يكن أخي يفكر في شيء من هذه الحكاية، (ربما أنتم خير منه لأنكم مصممون على الذهاب معي إلى نهايتها) أما هو فيعتبر نفسه لا ناقة له ولا جمل في هذه الهلوسات المخبولة، (ما علينا).

المهم أنه انساق خلف طباعه السيئة تحفزه في ذلك أخلاط ونزعات أنثوية مرضية- شافانا الله وإياكم- كان، كل مرة، يصحب معه فتيات كثيرات إلى المنزل، ويطلب من أمي أن تصنع له الشاي احتفاء بالضيوف. وكنت أقول في نفسي: (رحم الله القبر وما خلّف)، وكنت إذا ما ناقشته، يقول لي: "أنت معقد ومشكلتك عويصة، ولا يجب عليك أن تفرغ عليَّ أمراضك النفسية"، فنتناقش كثيرا، وينتهي الجدل بمعركة تتدخل أمي لتحلها.

كان أخي "المثقف" يحشر نفسه وسط النساء حتى نسي من فرط ما يفعل أنه رجل، لهذا كنت أتذمر من مشهده الرجولي هذا، وأتمنى لو يكون ذكرا يتصرف بما يصون له فحولته بين ذويه وأقرانه الذين كانوا يشُكُّون في أمره، وكل ما مر بينهم تغامزوا وتهامسوا، وكم مرة اشتبكت في باب الجامعة مع طلاب وقحين أخذوا يسخرون من أخي أمامي، آخرهم الطالب الأسمر الذي قال لي بسخرية مغلفة بالدعابة:

- هاهي أختك الجميلة تمرّ، أرى أن وردتها تفتحت ويجب أن تختار لها عروسا!.

فلم أشعر إلا وأنا أصفعه على وجهه، فسقط وانهلْتُ عليه ضربا حتى كدت أقتله لولا تدخل الزملاء الطلبة.

أخي لم يكن يحسّ بهذا، ولم يكن إطلاقا، يوليه أية عناية! وحينما أحدثه ينهرني، ويقول لي:

- لا تدافع عن كرامتي، لستُ في حاجة إلى ذلك، أنا عاقل وأفعل ما أريد وأدري نتائج عملي وأتحمل مسؤولياته، فشكرا لك.

حلمتُ، أحيانا، أنني أقتله وأتخلص منه! وفي المنام، ارتحتُ وقلتُ الحمد لله، لم ارتكب جرما، فالدين نفسه يقرُّ بقتل من لا غيرة له، وأخي لا غيرة له على كرامته وكرامتنا، فبالأحرى أن تكون له غيرة على نسائه وأولاده في المستقبل!.

كان أخي يدرس الإنجليزية، ويحب لندن والضباب، ويتابع القنوات والجرائد البريطانية، ويضع المظلة في صيف المغرب حينما تسقط أمطار مفاجئة في لندن! أخي العجيب هذا، يتخيل نفسه "لينيكر"1 ويعتبر" الهوليكنز"2 أرقى الطرق الصوفية.

أرخى أخي الهوليكانزي شعره على شاكلة "شيبو"3 وكحّل عينيه، وفيما بعد، غيّر عدستي عينيه، لتصبح عيناه زرقاوين على شاكلة حبتي الزيتون، وأدمن صالة الألعاب ليتمرن على مهارات البالي، وعكف على التمرن على رياضة الأيروبيك، لتصبح له إمكانيات الراقصات الإيطاليات اللواتي يلعبن مع كاظم الساهر في فيديو كليب "قولي أحبك"، أمي هي الأخرى فطنت لمغبة دلالها له، فقد أصبح يكلفها شطرا غليظا من ميزانية معاشنا التي تقتصر على ما خلفه والدي من نفقة التقاعد بعد موته، ومن بعض ما تجنيه الوالدة من

---

[1]- لاعب إنجليزي سابق.
[2]- عشاق ومحبو المنتخب الإنجليزي لكرة القدم من الجمهور، ويعرفون بنزوعهم العدواني، وميلهم إلى ممارسة الشغب خاصة لما ينهزم المنتخب الإنجليزي أمام خصومه.
[3]- لاعب مغربي سابق عرف عنه تحليق شعره ذيل الفرس تشبها بالنساء.

عملها في الخياطة الحرة التي تنشغل بها في أوقات فراغها بعد الانتهاء من المشاق البيتية، فقلصت من عنايتها به، وأصبحت أسمع جدالهما الصاخب من غرفتي المتاخمة للباب، آنذاك، كنت منشغلا بقراءة رواية "لاثاريو دي ثورميس" التي كتبها مؤلف مجهول. بينما أسمع أخي الهوليكنزي بلغته الإنجليزية الركيكة، وصوته المتأنث يصرخ في وجه أمه ويضرب كتبه على الحائط متأففا من تقشف أمي في العناية بأموره الزائدة، لو كان أخي يفكر جيدا لنفض أنوثته في أول سطل للقمامة يصادفه، ولرمى شعره وخبله ويفعل مثلما فعل لاثاريو دي ثورميس الصغير لما ودع أمه وخرج إلى الحياة وحيدا ليصارع أهوالها عوض أن يظل متعلقا بتلابيب امرأة عاجزة.

لست أدري من أين ورث أخي هذه الخصال السيئة، أبي كان يتضجر من طبيعة تعاملي معه. وكان، دائما، يقول لها: "إنك تفسدين الابن، ما هكذا يتربى الرجال!"

لكنها كانت تصر على تعنتها، تقول له:

- (أنت فقط فظ وقاس ولا تريد أن تتخلص من بداوتك القذرة).

وينشب بينهما شجار لا يفك إلا بقدوم الجيران.

هاهي أمي تجني ثمار عنادها وعصيانها وإفسادها للولد!

المهم أن الولد الغض ذا لم يكن مؤهلا ليساعدني على إيجاد "كطرينة".

كان أخي هشا، وكانت أفكاره فاسدة، لذلك، لن أعتمد عليه ولا على أمه، سألبي رغبتك يا أبي الغائب! فاطمئن.

الفصل الرابع:

في ضيافة البرنامج الحكومي

أول مشكلة اصطدمت بها بعد حصولي على الدبلوم المهني، هي إمكانية الحصول على عمل يضمن مصاريف الوقت. بدأت أبحث في الشركات العمومية والخاصة بشراسة وعناد، لكن، مع المدة، تسلل الملل إلى نفسي، واستشرى التعب في أعصابي، وانهدَّ بصيصُ الأمل، فقررت، بعد تردد، بفضل إلحاح بعض الزّملاء، الالتحاق بجمعية المعطلين! وهذه قصة، وحدها، تحتاج إلى رواية خاصَّة. المهمّ أنني انخرطت ظانا أن شهادتي العليا دون شك ستنتزع منصب شغل في دولة الحق والقانون، وأن الانفتاح الحكومي على تجربة التناوب، والشراكة التي أبرمها مع جمعيات حقوقية تشتغل في المجتمع المدني سيفتحان آفاقا رحبة أمام ألوف المواطنين من الشباب الحاصل على شهادات عليا كي يخدموا وطنهم، ويبرزوا كفاءاتهم، غير أن السيناريوهات التي حدثت لنا كادت تنسينا أننا— معشر المعطلين- ننتمي إلى فصيلة البشر، وأن الطريقة التي تعامل بها معنا المسؤولون شككتنا في كونهم من طينة من يمتلك الرحمة! فقد حشرونا في ركن مسدود حتى لا نختلط بعامة الناس، ولما لم تنفع معنا المناورة، وعرف محاورونا المتعددون أننا لا نروم غير الشغل، هاجمونا في البداية بصنابير الماء كي يسكتوا أصواتنا التي تلوث المدنية على حد قولهم، وتفسد عليهم اجتماعاتهم، وفي الأخير، لما لم ننخرط في سحرهم، أصدروا تعليمات صارمة لزبانيتهم فركلونا مثل

البغال والحمير، وأشبعونا سياطا وهراوات ورضوضا وجروحا وقتلى جزاء على ما اقترفنا من اجتهاد في التحصيل والكفاح طيلة أرداح من الدهر. وها فضل من يفني زهرة عمره!

كم أحتاج إلى أن أبكي وحيدا على ضفة أي نهر قاس! آه... خصوصا لما أتذكر آثار الضرب على الظهر والفخذين ومستويات كبرى من الوجه والرأس. حُمِلْتُ مع المحمولين في سيارات الإسعاف مغمى علينا إلى المستشفيات البئيسة التي من دخلها يكون حظه وافرا في سلك طريق اللا عودة! يستحيل وأنت تحسّ مثلي بهذه الآلام وتتذكر طعمها، أن تلذّ لك أية حياة بعدها مهما كانت مرفهة! وحينما استفقت من الغيبوبة، وجدت نفسي مشَّوها من كثرة اللطم والصفع وضرب العصيّ البوليسية، وازدادت معاناتي بعد أن علمتُ أن العنف الذي اجتاحنا قد خلف ضحايا وقتلى، وأننا سنحاكم تبعا للقانون بتهمة اجتياح مكان حكومي، وإزعاج موظفين أثناء قيامهم بمهامهم، ومواجهة رجال الأمن، والتحريض على الشغب داخل أفضية عمومية ضاجة بالسكان!

كتب الصحافيون ونشروا، واستبد الهلع والخوف بأهالينا في الدواوير البعيدة، وقرأَتْ نفوسهم اللطيف، وانقسمت أرواحهم بين حاجٍّ إلى المستشفيات، وحاجّ إلى المحاكم ومخافر الشرطة! ولأن الأمر حصل قريبا من الوزارات، فقد قدَّم كلُّ الوزراء تصريحات حول الموضوع بكونه تطاولا على أصحاب السيادة، وخرقا للقانون العام، واستهتارا برموز الدولة، وأكثر من هذا اعتبر بعضهم أمر اعتصامنا ومطالبتنا بحقنا في الشغل تسولا، لأن الدولة لا تمنح الشغل لعباد الله!

من أراد أن يعمل، فعليه أن يتجرد من ثيابه، ويشمر على سواعده ويقصد "الموقف"!

وعُرِضَتْ شاشات القنوات الوطنية التلفزية تصريحات أكثر من مرة، والهدف منها الوعيد والتهديد حتى لا تكرر مثل هذه الأحداث! هؤلاء الذين غالبا ما تنسيهم التخمة آدميتهم يعتبروننا مجرد أرقام بشعة تلوث صورة الوطن لدى الآخر! متجاهلين أن الشعب من نصبهم تلك الكراسي لا ليمرغوا وجهه في وحل الذل، بل ليحموا كرامته. لذلك، فلا جرم إن رمينا في مزابل القمامات الكبرى، ورُدم علينا التراب، وأقبرنا في سلة النسيان الأبدية! طز علينا وعلى شواهدنا وعلى قارورات العطر الجميلة التي نخبئها في جيوب قلوبنا الرهيفة! وطز على دمائنا الشريفة التي هذبتها المدارس والطرقات الكفيفة والجوع والعطش والحرمان! وطز على كل ثقافة نحملها ظنا منا أننا نحمل مشعل الحضارة والرفاهية. هؤلاء يقولون:

- -"إن الوطن لا حاجة له بنا، ولو اقتدنا جميعا إلى الجحيم، يكفيه هؤلاء الذين ينهشون عظامه ويسوسون أحصنته الجميلة صوب الخراب، يكفيه هؤلاء الجياع الآبدون الذين لا تشبعهم حتى بحار العالم كله! تكفيه بطونهم الجشعة "قِرَبُ السُّوءِ" كي يموت بطيئا بين أظافرهم الملوثة بالدماء والقذارة.

أخرجنا من المستشفيات، وسُقنا جماعياً إلى مخافر البوليس، وحوكمنا في المحاكم، بعد ما حُرِّرتْ لنا محاضر مزورة، ثم أطلقوا سراحنا عملا بمقولة: (إن الوطن غفور رحيم).

وبعد أن خرجت من هذه المتاهة، وجدتُنِي أدخلُ متاهة أعظم بؤسا وأشد وطئا، إذْ وجدت أمامي أمًّا شاحبة غضوبة، وأخا متشفًّ، وجيرانا ناصحين مستغربين (ما كان أبوك متمردا، ولا كانت أمك ثائرة!).

خرجت، آنئذ، إلى سوق البشرية مدجنا مثل ديك رومي لا أقوى على الصراخ من شدة الانهيار، اشتغلت نادلا في إحدى المقاهي، وبالموازاة بعتُ الدِّيطاي (السجائر بالتقسيط) بالتقسيط للزبائن والرواد، ثم، بعد ذلك، عملتُ حارسا للسيارات، واشتغلتُ، بعد أن طردتُ من هذا العمل بسبب عنجهية صاحب المحطة البنزينية وبخله، بائعا متجولا للكرموس الهندي والتين بأنواعه، ثم بعدها، عملتُ في مكتب الاستقبالات بإحدى المتاجر الممتازة... وهكذا دواليك إلى أن حل النصيب؛ واشتغلت أستاذا جامعيا في ظهر المهراز بفاس تخصص علم الاجتماع!

الفصل الخامس:

سيكولوجيا الخارج من أعضائه إلى المجتمع المدني!

ليس من السهل أن تعيش في بلد تحس بأن حقك فيه مهدور! وأنك لا تزن فيه قدر برغوثة! وأن أهله يكنون لك الكره! وأن الحظ يناصبك فيه العداء، كل العداء! تماما؛ هذا ما كان يحتدم بداخل أعماقي من أفكار وهلاوس، وفكرتُ مع نفسي، وقلتُ:

"إن كثيرا من هؤلاء المجانين الذين يرموهم في مزابل المارستانات ومحجات الحمقى، قد يكونون من أنجب أبناء هذا الوطن، ومن أحسن خدامه. إلا أن هناك من لا يريد أن يخدم الوطن، ويظل على حاله مثل دار لقمان! لذلك تكثر خلوات الصلحاء التي تحولت من أمكنة مقدسة للعبادة إلى أماكن لرمي القمامات البشرية، يُحبس فيها من أُزْهِقَتْ عقولهم كرها وقسرا. أنا أعرف العديد من الحماق، كنا نعطيهم تمارين رياضية صعبة، ويحلونها بسهولة على الأرض المبللة، وبعضهم يتكلم الإنجليزية والفرنسية ببراعة تثير الدهشة!، والبعض الآخر منهم يبدو أنه تمرس على السياسة والنضال، ويعرف الكثير عن التاريخ الإنساني والفني والأدبي!"

هكذا كان "أحمد النفرة"، من داخل خلوته ببويا عمر يغني عبد الحليم وأسمهان ويتحدث عن عبد الناصر والهجوم الثلاثي، ويلحن

أغاني الشيخ إمام بصوت باكٍ، ويصدح بصوته العذب الشجيّ بقصائد نزار الأولى، وقصائد درويش ومطران والسياب والبياتي! والكثير مما لم نكن نفهمه ولا يفهمه الذين رموه في الخلوة/ السجن. أذكر أن أهله ، هم الآخرون، أرادوا أن يرتاحوا من فظائعه، فتركوه هناك ، ورحلوا إلى انشغالاتهم الخاصة. وعندما يزورونه لا يأتون محملين بالهدايا والورد وبيرة الهينكين التي يعشقها أحمد، بل يأتون فقط، ليروا هل الحفيظ العلمي يقوم بواجبه في تجويع أحمد/ الجني وتعذيبه ليفرّ بجلده، دون أن يعلموا أنهم إنما سيرسلون، بفعلهم ذاك، فلذة كبدهم إلى العالم الآخر قهراً.

تصوروا شابا مثل أحمد من أسرة ثرية عَهِدَ النوم على الأسرة والبلاطات المزركشة والأفرشة الفاخرة الوثيرة، في أرقى شوارع الرباط وفاس، يتحول، الآن، بين عشية وضحاها، إلى سجين دون أن يمارس ما يجعله خارج القانون! وليس أي سجن! خلوة، كهف قديم... يُحكى أن السيد مسعود بن الحسين، الولي الصالح المتصوف الذي قهر جيوش آخر سلاطين السعديين، كان يقيم فيها شعائره التعبدية، لا ماء، ولا ضوء، ولاغطاء، ولا ابتسامة، ولا حنوّ... كل ما هنالك الجوع والقهر، والرائحة العطنة التي تصدر عن فضلات أحمد ونفاياته، حيث يضطر لقضاء حاجته هناك. لم يكن يأكل إلا مما يلقيه له الزوار في غفلة من الحراس! وحينما كان يصل لحظة هيجانه اليومي يدخل فترة سعار، يرغي ويزبد ويسب الملأ، ويلقي على الزوار برازه العطن، ويكشف لهم عوراته. أحيانا يدخل فترات تأمل طويلة ولا يرفع رأسه لأحد مهما كان.

وكان الناس يتداولون بأن سبب جنون أحمد:

1- خيانة حبيبته له، بعد أن اكتشف خداعها وعلاقتها الغرامية مع مهاجر مغربي إلى الديار الإيطالية.

2- حسد أصدقائه له على تميزه الدراسي وتفوقه، فدسّوا له مادة أو نبتة (شدق الجمل)4 الخطيرة في كأس قهوة.

3- تناول مادة الحشيش بنسبة كبيرة، إلى درجة أن الدماغ أُتلِفَ، نظرا للكمية الهائلة المخدرة التي تسربت للأنسجة الدماغية.

كل ذلك مجرد تكهنات، لكن السبب الأصلي والحقيقي ظل كامنا في صدر أحمد وغيره من الحماق، ومن يطلق مثل هذه التكهنات؛ إنما يأتي ليَتفرّج على عورات الناس تضامنا أو تشفيا. الواقع المر هو أن كلّ شيء في هذا المجتمع المتخلف، المنحل، يهيئ الإنسان ليكون أحمق مجنونا!

كل شيء يمكن أن تقاومه إلا الرغبة في التنصل من العقل في هذا البلد: فقر مدقع، عطالة أبدية، جهل وأمية، عهارة وتفسخ، إرهاب متعدد...أينما وليت وجهك لا تجد أمامك سوى الجدران الصدئة التي تخرب العقل وتهدم الحواس...

في هذه البلدة السعيدة ما أكثر المجانين!

تراهم في كل الأماكن: الأزقة، الأضرحة، الأسواق... وحتى الذين تعتقد أنهم أصحاء لا يربطهم بواقعهم سوى لحظات قصيرة، إذ

---

[4] - نبتة مهيجة، تعرف في الأوساط المغربية يكون من تناولها يفسد مزاجه، ويدخل حالة هستيريا دائمة.

سرعان ما يهربون بخيالهم الجامح صوب عوالم يشيدونها خارج منطق العقل ليستطيعوا الاستمرار! ذاك ما كان يحدث لي تماما، كان بالإمكان أن يحدث لي ما حدث لأحمد و"علال اللامبة" و"بلي بولكلاب" و"موح السكران" و"رشيد المهبول" و"حسن بيخا" و"مبارك ولد الشهية" وغيرهم.

كنت أحس أني قريب منهم جدا، لذلك كنت، في كثير من الفرص التي تتاح لي، أحنّ على هؤلاء، وأحادثهم وأحسُّ أني بالنسبة إليهم مألوفا، لأني كنت أقرأ أفكارهم المعكوسة بفوضى خاصة، ومع مرور الوقت، أصبحت أدرك منطق لغتهم الصَّعب.

وجدت نفسي، في الأخير، أدمن عالم المجانين: أزور بويا عمر، سيدي مسعود بن الحسين، بويا رحال، مارستان برشيد، مولاي بوشعيب السارية، مولاي عبد الله أمغار. كما أني أدمنت قراءة كتب الشعوذة وصرع الجن وحل المعقود من قبيل "الصارم البتار" و"السحر الأحمر" وغيرها كثير... الجنون عالم خارق! الجنون حياة! الجنون انتقام! الجنون إفراط في السكر! الجنون توحد في عالم الغيب! الجنون تنصل من حدود العقل العاجز! الجنون تمرد على قوانين عالم مقيت! هو ذا الجنون كما أفهمه! لو شكّل المجانين حزبا لحكموا العالم! فكل من عجز عن التغيير، ولم يعد يطيق عالمه، يلوذ بظل الخيال ضدا على سخافة القيم المسكوكة !

يقول لنا المجانين عقب حمقهم: لا علاقة لنا بكم أيها العقلاء! لكم منطقكم ولنا منطقنا! فإلى الجحيم أنتم وقيمكم: أحمد النفرة

كان ينتظر حتى تطل عليه شلة من الفتيات فيخرج جهازه التناسلي؛ ويمارس العادة السرية حد الاستمناء، فتطلق الفتيات صرخة غنج مصحوبة بضحك ماجن واحمرار في الوجوه! وبعضهن لا تجد حرجا في متابعة المشهد إلى النهاية قائلة بصوت مسموع: الله يستر!

الله يستر على القائل أم على المقول له أم عليهما معا.

أن تعيش مجنونا نبيلا -فكرتُ- خير من أن تموت بالفقصة، وأنت تلمح الظلم عاريا يمشي بين الناس دون أن تستطيع أن تردعه! ودون أن تستطيع معه صبرا! فمع الجنون على -الأقل- لن يكون لديك وقت لتفكر في تلك الأشياء ! ستكون خارج التغطية، خارج العقل، خارج الذات ! ستكون منشغلا بمحنتك الخاصة التي يصنعها وهمك الرائع: ما أروع الوهم! (جرب مرة لتكشف هذا العالم الجميل، وسلِ المجرب ولا تسأل الطبيب!) ستضرب أخماسا في أسداس وتترك عالم القيم الفاسدة في غيه يهمع: بحار من الدم وأهرام من الجماجم البالية، وقيامة من الناس يسقون جيوب الفساق بعرقهم الغزير، ويكدون من أجل تضخيم ثروتهم (اجر أيها التاعس بسعد الناعس). وسأسوق لك هنا حوارا أجريته شخصيا -أنا الراوي- مع أحد المجانين الذين كانت تربطني بهم علاقة ثقة وصفاء :

- ما أخبارك يا سطوف؟!
- رأيت الشيطان البارح يعزف الكمان في الحوش، و الملأ يرقصون معه ويغنون !
- صف لي الشيطان !كيف يبدو؟

- اعطيني درهما ؟!

- ماذا ستفعل بها؟

- اعطيني درهم!

- ماذا ستفعل بها!

- أمي يا صديقي، اعطيني درهم!! أنا عندي شجرة هل تراها؟ سأصعد فيها وأتوارى عن البشر، أطير، أطير، أطير مثل اللقالق! اعطيني درهما ودعني أطير!.

لا يمكن لمن يزور سيدي مسعود بن الحسين أن ينسى المجنونة بهيجة والأحمق "الميثيل" اللذين كانا يمارسان الجنس أمام الملأ، بطريقة حيوانية، غير عابئين بحلقة الناس التي تحوطهم، والحجارة التي تصب عليهم كوابل من المطر! بهيجة المهووسة بالجنس تصيح في وجوه المارة أبدا: "اعطيني شهيوة"، وهي تحك فرجها العاري، وكان الكثير من الأصحاء عقليا وبدنيا، المكبوتون جنسيا يَخْتَلُون بها في الظلام، ويستدرجونها خلف الأسوار أو داخل الأحواش الخالية ليمارسوا عليها الجنس بطرق شاذة و بهيمية . بهيجة فيما بعد، امتلأ بطنها وأثمرت الشهوة التي تطلبها علنا ممن يمرّ بجانبها، ولم يعلم أحد من أي ماء فائض جاء الحمل. أمن صلب "الميثيل" المتوحش أم من صلب الأصحاء الأقوياء المكبوتين؟

عشتُ تجربة الخبل عبر الوهم. تخيلتُ نفسي مهبولا، وصرتُ رحالة أجوب أرض الوطن راجلا بحثا عن ملاذ وهميّ، عاشرتُ المجانين واستمتعت بعوالمهم الغريبة، وبحثتُ عنهم في كل الأضرحة والمزارات،

هل كنت فعلا أحمق؟ لا أدري!! المهم أن هذه الفترة منحتني تجربة قوية على الصمود في وجه الرياح العاتية، تجربة كانت متنفسا حقيقيا لمعاناتي الداخلية طيلة سنين. تجربة مُتوَهّمة جعلتني أتحاشى جنونا حقيقيا وشيكا! بعد هذه التجربة، عدت قويا، بعد أن تخلصتُ من هشاشتي، لأواجه العالم المقيت.

لا تقلقوا! لم أنس البرنامج السردي الأساسي، ولم أنس "كطرينة"، سأعود إليها بشغف مثل ذاك الذي حمله والدي معه إلى العالم الآخر.

الفصل السادس

إيروتيكا الوحش!

تفاقم أمر الأخ الأكبر لربيع ولد القريش، وبدأت أصابع الاتهام تشير إليه بممارسة الشذوذ الجنسي مع أبناء الأسر الكبرى، كما أصبح يتناول جميع أصناف المخدرات، خاصة منها القرقوبي والغبرة والمعجون. ولوحظ تردد شبان غريبي الشكل على منزله، يرتدون لباسا يبرز أعضاءهم الحساسة، ويكثرون من الدهون والماكياج اللذين لا يليقان بذكور، واشتكت أمه من كونه يخرج قبل العشاء ولا يعود إلا في وقت متأخر من الليل، خاصة بعد ابتعاد أخيه ربيع عن المنزل، وإقامته بمناطق متعددة منها فاس والرباط. ولما كان يعود إلى البيت غالبا ما لا يجده بسبب غيابه المتكرر، وانشغاله بأمور جسده ونزواته، وتركه للدراسة وما يأتي منها...

تغشى في هذا الزمن الأسود طاعون الشذوذ أكثر من أي فترة مضت، وبرز، في الأفق، جيل جديد من الشبان عشقوا النسوية وعبدوها فتمثلوا للقوم بشرا آخر، وبدل أن يجردوا فحولتهم لملء ثغرة الأنثى، تأنثوا ومنحوا للذكور مثلهم مؤخراتهم ليجلدوها بسياطهم، بل أكثر من ذلك؛ انخرطوا في جمعيات ليدافعوا عن حقهم في التزاوج والتوالد والتناكح وحقهم في العيش دون مضايقة المجتمع! وراحت الجرائد تعرض شهاداتهم عن المجتمع والناس والحياة والسعادة، مثلما عرضت صورهم، وهم يعرضون أجسادهم وأعضاءهم للبيع في الشارع

في ليل الدار البيضاء والرباط، قريبا من عتبات المنازل وأمام إقامات الأمن وداخل الخربات المهجورة، بل وقد عرضت إحدى الجرائد صورا لبعضهم استل للتو عضوه من دبر قرينه، بعد قضاء وطره منه قبل أن يمنحه هو الآخر مؤخرته ليفعل بها ما يشاء! الأخ الأكبر "عماد" تدرج في مدرسة الشذوذ شيئا فشيئا: ابتدأ بالموسيقى، ثم مخالطة النساء، ثم التأنث في اللباس، ثم الإدمان على المخدرات؛ وأخيرا التشبه، بالنساء ليجد نفسه، في الأخير، عرضة لإدمان جنسي شاذ ومقلوب، يُفعلُ به ، عوض أن يفعل هو في الكثيرات ممن عشقنه. ولما تأكدت الفتيات اللائي عاشرنه بأنه لا ترجى منه فائدة تركن طريقه، وفي غفلة منه، وجد نفسه قريبا من عالم النساء، فراح يبحث لنفسه عن ملاذ آخر محرّم، ومحاط بكثير من البرك والأوحال.

غاص عماد في وحل عشقه حتى العظم، وولج ورطته من بابها العريض، برغبة منه، حد الغرق، ولن ينفعه معها حتى "صابون تازة". لقد فقد الرجل فحولته ودمر حلمه الذي كان يبنيه أيام زمان من الطين والرمل البحري بشاطئ النحلة بالبيضاء. وافتقد ثقة الناس واحترام الزملاء. أصبح امرأة وأية امرأة! امرأة تدير دهرها للآخر مثل ما تفعل البهائم، وأحيانا أمام الناس، قرب النوافذ وتحت الشجر في عتبات الليل المتأخرة: امرأة لا تلد ولا تلتذ، امرأة رغم أنف الطبيعة. سمى عماد نفسه ربيعة، وأطلق فتائل شعره، ثم صبغه على شاكلة أنجيلينا جولي، وواظب على رياضة الأيروبيك لاكتساب ملامح جسد الأنثى. خسر نفسه، خسر الدنيا والآخرة، كما كان يؤكد الفقيه "الجيلالي" الذي يؤذن ويؤم الناس في الحي الذي يقطنه عادل أقصد ربيعة.

"ربيعة" الآن تمارس الجنس الرخيص من أجل دريهمات قليلة، فيما كانت عزلة خانقة تفتك به. مع مرور الوقت لم تعد تزهو لربيعة الحياة في هكذا خناق، فقرر "ربيعة" السفر إلى الخارج بوساطة من أحد المسؤولين الكبار. قصد العمل مع طاقم قناة بورنوغرافية تدعى xxl. ولاقى نجاحا كبيرا ثم حصد ثروة هائلة: اشترى شققا في سيدي بوزيد والصويرة والمحمدية والجوهرة الزرقاء "السعيدية" وكل المنتجعات السياحية. وفكر، فيما بعد، إنشاء شبكة منظمة لتسويق الجنس واللحم البشري الشاذ عبر هذه المنتجعات، مع حرصه على توسيع الشبكة، وإنشاء فروع لها في الدول الأوروبية.

أصبح الشباب في المدينة التي ينتمي إليها عماد/ ربيعة، يتحدثون عن كيفية انقلاب القيم، من يستعمل العقل ويحصل على الشواهد والإجازات ينتهي به المطاف أحمق في بويا عمر أو ميتا بالسم أمام البرلمان أو حارقا ومحروقا في المحيط الأطلسي والبحر المتوسط أو بائعا حقيرا لأشياء تافهة في الشارع. ومن يبيع مؤخرته ويستعملها ينتهي به المطاف رجلَ أعمال وسيّد أثرياء البلد. بعضهم ضحك كثيرا حتى انقلب على ظهره وقال: "هذا عصر العضو التناسلي، سواء كان في الخلف أو في القدام الأمر سيان، وليس عصر العقل".

وبعد أن يسَّر الله على "ربيعة" ونجحت مشاريعها الكبرى حجت سبع حجات، ونالت احترام أهل الدرب وأهل الحزب، وبإيعاز من الناس الذين يأكلون من تحت يديها، وتعتبر ولية نعمتهم، تقدَّمت للانتخابات، وعقب حملة انتخابية حرقت فيها عشرات الملايين من الدرهم، فازت ربيعة بامتياز بمقعد برلماني، ونظرا لعبقريته/ عبقريتها

ستترشح، فيما بعد، لحقيبة وزارية، وسيلتف حوله الناس الذين رشقوه/ ها بسهام سبهم وشتمهم، وسيصبح اسمه سي الحاج عماد صاحب الدار الكبيرة، وهكذا يتأتى له/ها أن يدخل المجد من بابه الواسع. هذه المرة تتفتق العبقرية من المؤخرة، وليس من العقل أو الفكر. سبحان مبدل الأحوال.

الفصل السابع

رحلة البحث عن "كطرينة"

ظل ربيع، بالرغم من حصوله على وظيفة محترمة بالجامعة، وتحسن أحواله المادية، واستقراره النفسي، معلقاً "بكطرينة" مثل حلم، مهووسا بتفاصيلها المشردة في مخيلته، وشكلها الضائع الذي دفن مع أبيه "القريش" في القبر! والآن، بعد أن أصبحت له سيارة لا بأس بها، ورصيد يكفيه للسفر، وَطَّدَ العزم على المسير، واختار عطلة الصيف. الطريق إلى الجديدة[5] هو معبره الأساسي، لكن المعابر كثر، وأبوه كان يتحدث عن بن معاشو وأم الربيع:

"كنا يا ولدي نرعى الغنم على شط وادي أم الربيع قرب السد، بينما كانت الشياه تنهمك في ملء محصلاتها من العشب الأخضر، كنا ننخرط في لعب "هيري"، يدخل واحد منا إلى مركز الدائرة ويتحلق حوله، غير بعيد، اللاعبون، ثم، بعد إشارة، يبدؤون في قصف الرجل بالأرجل والأيدي بدون شفقة، يتهرب اللاعب المركزي من قصفهم السليط وتمويهاتهم دون أن يخرج عن الخط، ولا بد في الأخير، بعد تلقي عنف شديد، أن يمسَّ أحدهم ليعوضه في المركز، وتدور الدائرة الجهنمية على أغلبهم، وكثير منهم يعود، وفي جسده بقع من أثر الضرب العنيف".

---

[5] - مدينة توجد على الساحل الأطلسي جنوب البيضاء بحوالي 90 كيلو مترا.

كانت السيارة تخترق الطريق الملتوية مثل الثعبان، وكلما صعدت الطريق منعرجا أو مرتفعا انطلقت سحابة من الدخان من المحرك. لم تكن السُّرعة التي يسير بها كبيرة، ولم تكن المسافة التي تفصل بين البيضاء وكطرينة طويلة، غير أن تشوق ربيع للوصول، وعدم معرفته بالطريق جعلاه يتخوف من الضياع، فانتقل هذا التخوف إلى السيارة نفسها. تخيل لو كانت بجانبه فتاة جميلة تؤنسه في رحلة بحثه هذه. قال في نفسه:

ماذا لو كانت أمي صادقة؟، ماذا لو كان أبي يخرّف في آخر لحظات حياته؟ ماذا لو كانت كطرينة مجرد فكرة/ كابوس يقضُّ مضجعي، الآن، بعد أن رحل والدي بسنوات إلى العالم الآخر. لا يهم، ما يشدني الآن، هو أن أصل إلى هذه البلدة وأتعرف على عباس. لكن لو كانت معي امرأة الآن، في هذا الخلاء، تصوروا ما الذي سيحدث (...)، ما الذي ستحركه الوحشة والعطش والطريق الملتوي وشجر الكاليتوس الذي يحفها، شجر عملاق، كأنه يتأبط سحر جزيرة الوقواق! لست أدري إلى أين أتجه الآن، لا يبدو لي أحدٌ كي أسأله! وما لدي بوصلة لأعرف المتجه الصحيح. أريد أن أطلعكم على الشاذة والفادة ما دمتم مهتمين بأمر "كطرينة". أنا أهيم في هذه الطريق وحدي. الشحرورة نجاح سلام تغرد بصوت حزين في مذياع (هيت راديو) وتغني (عايز جوباتك).

يبدو لي هنا، على نحو عشرين كيلومترا على بعد سيدي امعاشو شيخ يسوق قطيعه. سأقف، وأسأله عن كطرينة. لا تذهبوا بعيدا. انتظروني. سأخبركم عما قليل، بما سيدلني عليه (عليك أيها الراوي ألا

تدس أنفك في كل شيء، يبدو أنك وقح وفضولي الزم حدودك، دعك، هناك، في السيارة).

الحمد الله! الرجل قال لي: كطرينة قريبة مني، وإني في الاتجاه الصحيح، ولم يتبقَّ لي سوى سبعةِ أميالٍ لأطرقَ بابها... سأصل إلى ثلاجة مركز حليب، وبعدها مدرسة ثم انعطفُ يساراً مع أول طريق ترابية ثم أسأل عمن أريد، أسأل عن عباس.

كنت محظوظا، وجدت عباسا حيا يرزق، التقيت شابة سمراء طويلة القامة. سألتها. قالت:

- إن هناك أربعة عبابيس، أيهم تريد؟

قلتُ:

- عباس الصّغير الذي كان في البيضاء.

قالت:

- آه هو زوج عائشة، نحن البدو نسمي الرجل بزوجته، هو هناك على ظهر البئر، أمام خيمته شجرة الطرفاء العتيقة، وقبالتها زاوية الشريف، لن تَتُوهَ عنها، إنها كعلَم على رأسه نار.

الفصل الثامن

في وصف عباس:

كيف أصف الرجل الذي حدثني أبي عنه طويلا؟ كيف أصف هذا الذي بحثت عنه مدة عشرين سنة؟ لست أدري ما الذي تريدون أن تعرفوا عن هذا الشخص؟ لن أقول عباس شخصية من ورق ابتكرها لي ـ أنا الراوي ـ السيدُ الكاتبُ. ومع أني لا أحب أن أدسّ أنفي فيما لا يعنيني، أنا رجل "دغري"، فما الذي سيفيدكم معرفة وصف عباس بن الصغير، لماذا أنتم فضوليون هكذا؟ ثم أنا لا أعرف هل أصفه كما كنت أتصوره من خلال حكايات أبي عنه، أم من خلال حكاياه هو عن نفسه، أم كما رأيته في الواقع؟؟ لكن المهم أن نرسم صورة عنه. سيقول لي بعض النقاد: أنت روائي فاشل لأنه كان عليك أن تقحم الوصف في أثناء الحكي دون أن تفصّله، لكني أتعمد ذلك لأجعل قارئي يرتق النص بالشكل الذي يريد، فأنا رجل أثق في إمكانيات قُرّائي وفي قدراتهم! القارئ أذكى بكثير مما يتصور بعض النقاد المتعجرفين.

عباس رجل طويل القامة، شجرة وارفة، بالرغم من مرور أزهى فترات العمر. كان في أوج صحته وشبابه يجر جرارا إبان وحله في طي الترس الوعر، أسمر اللون، وجهه اتخذ لون التراب. كانت أمه تقول: عباس ولدي كان أبيض مثل الحليب، لكن الشمس والعمل الشاق أحرقا سحنته، فتلونت! تقليديٌّ إلى حد كبير، يلبس الجلباب في

الصيف، ويضع عمامة خضراء تمثُّلاً بأجداده من شجرة الولي الصَّالح الهادي بن عيسى. وكان يشرب الماء المغلّي ويروض الثعابين والأفاعي والعقارب، ويخفف من أثر لسعاتها للناس بشكل عجيب، إذ يمسد مكان اللسعة، وتدريجيا يخف الألم، ويذهب السم. طيب حد السذاجة، بشوش لا يلقى الناس إلا مبتسما!

طبعا، لقد تغير عباس، انحنى عوده، ودهم وجهه كثير من التجاعيد، وعلت سحنته مسحة حزن باهتة، وربما اعترى ذاكرته كثير من الثقوب. صار رأسه مثل حجر كرانيتي أملس غاب عنه كل الشعر، وغطته عمامة بيضاء حال لونها. تحس بأن هذا الرجل قريب منك تماما، وأنك عاشرته منذ زمان. ومع أنه يحمل في قسمات وجهه غلالة حزن عميقة، فهو مرح للغاية، ورجلُ نكتة ودُعابة. هادئ الحوار بارد الانفعالات، علمته التجارب ضبط النفس، وروضت المحنُ أعصابه.

الفصل التاسع

"كطرينة" كما رأيتها ورآها فقيه

عندما تأتي من البيضاء، المدينة الصاخبة بما فيها، وتحط الرحال بهذه القرية الصغيرة، يخيل إليك، تماما، أنك في عالم منعزل، لا صلة له بما حوله. وحتى ضجيج هذه المدن التي تبعد عنها بأقل من مائة كيلومتر لا يصلها بطريقة أو أخرى. قرية تحتفي بغيابها بشكل حميمي. كل الناس متصالحون مع هذا العالم، ويضمرون قساوة غير مفهومة ضد الطبيعة والناس والذات. أناس بسطاء تقهرهم الحاجة ويهدّهم التعب، وتظهر، على وجوههم، علاماتُ المرض الخفيّ، لكنهم يتعايشون. لا يلقُون العتابَ على أحدٍ، قانعون بوضعهم البئيس، قائلون أبدا:

- "هذا قدر الله" دون أن يرهقوا أنفسهم بالبحث عن جواب لسؤال: لماذا نحن هكذا؟؟ يقطنون بيوتا واطئة مشيدة من الحجر والطين، تحفها أشجار التين والصنوبر والصبار، ويخيل من أول نظرة أنها تتهدم عند سقوط أول قطرة مطر، أو عند هبوب أول عاصفة. يأكلون ما (قسم الله) خبز شعير وزيت زيتون و"بادّاز" حافي(دون لحم)، أما اللحم، فهم لا يتذوقونه إلاَّ مرة واحدة في الأسبوع. نظراتهم ساهية، عميقة وحزينة تغور في الأشياء والكائنات في تماه محير.

كنت أنظر إليهم؛ متذكرا صورة والدي في بداياته وشبابه، وهو يصول ويجول في هذه المسافات، مكتشفا شخصية من جديد. بدأت أخيرا أتلمس أسباب إلحاحه على دعوتي لزيارة هذه القرية. السكون والجمال الطبيعي وأنسام التاريخ تحرك في داخلي طفولة لم أعشها قط. تمنيت لو أني أستطيع أن أتجرد من وقار الأستاذ لأشارك الأطفال الحفاة سعادتهم، وهم يجرون، أو يلعبون "القليع"6 أو "دينيفري"7 أو "هيري"8 أو "غميضة" يهيئ المكان فسحة هائلة للتخلص من كل عقد الماضي والحاضر، وفرصة لا تعوض لإجراء عملية التطهير الذاتي وإعادة تعمير الذات بحيوية هائلة: الطيور تزقزق فرحة بالربيع، آلاف الألوان الطبيعية من الورود والزهور تملأ العين، وهدوء ملفت يفتح لك شهية امتطاء الخيال الذي قتلتْهُ المدينة.

كنت، وأنا منشغل بالحديث مع عباس وأهل القرية الطيبين، أستحضر حكايا أبي عن القرية المقبورة، وحكايا الناس عن عباس، وأقارن بين ما أراه وما حُكِيَ لي، ساعيا إلى لملمة صورة ما عن "كطرينة" التي أعدمها الجبارون في زمن مضى، ولم تعد سوى حلم أو ذكرى في مخيلة من عاشوا الحدث أو سمعوا عمن عايشه، وأغلبهم أدركه الموت.

6- لعبة تقوم على بناء عدد من النّصب الحجرية الصغيرة في واجهتين، ثم يتنافس اللاعبان في عمليتي الهدم والتصدي، ومن يفلح في هدم كل نصب يفوز في اللعبة.

7- لعبة تتأسس على قاعدة مفادها أن الفريقين المتنافسين يجب أن يدخل أكبر أعضائهم في الموضع.

8- هيري لعبة تقوم على وقوف لاعب في وسط دائرة ويتحلق حوله اللاعبون الآخرون، وينهالون عليه ضربا بينما يتصيد هو أحدهم، ومن تم لمسه يدخل الدائرة.

كانت عيناي تسبقاني إلى الآثار والسُّحن والبنايات والمخلَّفات القديمة، أتهجَّى، عبر ثقوبها، هيروغليفيات المنسيّ من الشخوص والأحداث والحوارات. عباس كان كالنبع الفاتر لا يعطي إلا بمقدار. لذلك كان عليَّ أن أستحثَّه بقرف وصلافة أحيانا، ليحكي لي ويعري ذاكرته بين يديَّ، لكنه كان يتهرب دائما، من الموضوع نحو مواضع أخرى هامشية:

- اشرب، اشرب كأسك يا ولدي الحديث طويل...اشرب كأسك قبل أن يبرد. ما فات مات ! لقد قلبت عليَّ المواجع يل صديقي، فأنا لما أتذكر تلك الأحداث، يستيقظ الألم تليداً في روحي ، وكأن الجرح صار البارحة!

- يا عم عباس. الماضي لا يموت. الماضي يسكننا مثل الجرح، وحتى لما نموت يسكن أبناءنا بعدنا ويسكن أبناءهم بعدهم جيلاً بعد جيل...

طأطأ عباس رأسه، وكأني به يحس بورم متعفن يتفقس بداخله. اصفرَّ وجهه، لما علم إصراري على توقيع المعزوفة ذاتها، وجمعَ عظامه بصعوبة، ثم انسحب.

قصدتُ فقيه المسيد الذي عَّرفني عليه عباس أثناء العشاء الذي أعدَّه على شرفي أول ليلة حططت الرِّحال بالقرية. وجدته منشغلا بقراءة بعض المتون؛ وأمامه بعض الصبية يتلون القرآن الكريم. فقفلت راجعا، وقصدت شجرة كرم (تين) قريبة من المسجد. جلست في الظل. أشعلت سيجارة، واتكأت على جدع الكرمة. كنتُ أنفخ

الدخان إلى الأعلى، فيشتبك بالأغصان في محاولة يائسة للتحرّر. غير أن الريح الدافئة تردُّه، فيذوب في متاهة الشجرة. وكانت حبيبات التين قد بدأت تظهر لحظتها، وغير بعيد، ترعى أغنام في حقلٍ، وفتاة جميلة القد تسقي الماء من البئر المتهالك. كنت تائها في هذه التفاصيل، حينما أيقظني الفقيه، بصوته الرخيم، وهو يناديني بأن أدخل إلى المسيد. لحظتها، كان الطلاب قد غادروا، وكان الفقيه قد انتهى من طقس تراتيله.

حكى لي الفقيه المختار-هكذا يناديه أهل الدوار" سي المختار"- عن علاقته بأهل الدوار، وحفاوتهم به ومسيرة تحصيله العلمي، انطلاقا من البلدة، مرورا بزاوية مولاي الطاهر القاسمي، وزاوية سيدي إسماعيل، وانتهاء بزاوية سيدي الزوين بمراكش.

لم يكن يعرف المختار عن والدي الشيء الكثير، والأمر نفسه بخصوص أحداث القرية. فلما غادر والدي وعباس القرية المستعمرة، لم يكن عُمْرُ المختار، آنذاك، يتجاوز الأربع سنوات، إذ لم يكن بعد، يعي الأشياء والتحولات. قال لي:

- "أتذكر أسماء وصور أشخاص صهب، كانوا يتكلمون لغة أخرى غير لغتنا. كنت لا أفهم كلامهم، كانوا يمرون علينا بسياراتهم "اللوندروفير" سريعين، ونحن نلعب "غميضة" فنهرب جافلين، وتهرب معنا الأغنام والأبقار التي كنا نرعاها في أعشاب التلة الحمراء قرب الوادي الذي يصب في نهر أم الربيع".

كان المختار مرحا وحفيا بي، وانفتح قلبه لي منذ أول لقاء. كان يقول لي إن والده رحمه الله كان صديقا حميما لوالدي، كلاهما لقي الآخر في دار البقاء، كان الأمر سيكون مفيدا لو كان والد سي المختار ما يزال حيا.

كنا معا نرتشف "كؤوس" الشاي المنعنع بالشيبة، ونحيي الذكريات المردومة. وكنت أتحايل على "سي المختار" كي يفتح أرشيف ذاكرته أكثر لي، خاصة ما يتعلق "بريبرتوار" القرية المقبورة، تلك التي لم تتبقَّ منها غير آثارٍ متهالكة وذكريات شائهة تحفظها، بشكل مضطرب، ذاكرة جمعية منهكة: الناس منشغلون بالخبز والصراع من أجل البقاء، مشغولون عن ماضيهم وماضي بلدتهم وأجدادهم بحالهم القاسي، الذي لا يرحم. وحدي مثل أحمق جئت من أجل أن أنغِّص عليهم هناءهم بخرافة اسمها "كطرينة القديمة" وأحلام رجل اسمه "القريش".

لم أكن أجد لديهم غير نظرات مستهزئة ومرتابة. وكان المختار، وحده، يجد فيما أحكيه طرافة ومتعة مدعاة لشرب المزيد من شقوف الكيف، والسهر على إيقاع الحكي، بعيداً عن المسيد في بيت مستقل منحته إياه القبيلة مقابل الآذان في الجامع وتدريس الصغار وإمامتهم في الصلاة وتلاوة حزبين كل يوم.

على هذا الإيقاع يعيش المختار حياة منتظمة وفق رتابة يومية قاتلة. سألت الفقيه عن كيفية تصريف همومه وضغط النظام الصَّارم

لعمله. فأجابني بكونه ليس من حجر، بل إنسان من لحم ودم، له مسارب يصرِّف عبرها ضغطه اليومي.

ضحك "سي المختار" وهو يحكي لي دون تحفظ، وتلقائية عن تجربته العاطفية، بالرغم من الحصار المضروب عليه، قال لي بكون النساء هنا، هنَّ من تستدرجنني، مع أنني أتهرب من فضائحهن ومكائدهن. بعضهن تأتيني بالفطور أو الغداء ثم توحي لي ببعض الإشارات الجسدية برغبتها فيَّ، أو إطلاق دعوة صريحة للدخول في مغامرة مثيرة، خاصة وأن القبيلة لم تكن تحرم تردد النساء على المسيد متزوجات أو أبكارا أو مطلقات أو أرامل، لغاية من الغايات المعروفة، طلبا لتسمير[9] الضرس العليل، وتسكين وجع الرأس أو كتابة آيات الشفاء على الكفّ ولحسها أو ضرب الخط ومعرفة البرج أو حساب الطالع أو الإتيان بالمأكل للطلاب (المحضرة) أو اصطحاب ابن أو أخ... أو غيرها.

أعرف أن الكثير منهن تأتي لغير ما تُظهر، لكنّي غالبا ما أتغابى. وأحيانا يصادف ذاك الإغراء اللذيذُ ضعفي، فأنهزم أمام نداء الجسد، وأذعن لرقصات الرغبة داخل جسدي: كلمات قليلة، أحيانا مشفرة، ويكون اللقاء في غرفتي ليلا ما دام ذلك يستحيل في النهار. تتسلل إليَّ الأنثى في جنح الظلام هاربة من فراش تُبردُه غيبةُ الزوج أو عجزُه، تدفعها رغبة لا تقاوم في معانقة دفء الفحل الممكن. قد تتزين أو لا تتزين، تقوم إليّ في عطر أو في غيره، ومهما يكن من أمر،

---

[9]- عملية من خلالها يقوم فقيه بتلاوة بعض الطلاسم والتعاويذ على رأس المعلول، فيزول الألم.

فاللقاء المسروق له سحر لا يقاوم، نلهو ساعات على ضوء الشمع، وصوت الحاكي، نتبادل الارتواء، ونحرق الشوق بالوصل العنيف. وتنسحب الطريدة قبل أن يستفيق أول فلاح.

أغتسل -بعد أن أستغفر الله وألعن الشيطان- ثم أقصد المسيد للآذان والصلاة بالناس. وأحيانا إذا كانت الأنثى تستحق المبادرة، وكانت المغامرة مأمونة الجوانب بنسبة كبيرة، أروح أنا إليها: أشعل جسدها وبيتها ساعات، ثم أنصرف. كل واحدة من هؤلاء العشيقات يعرفن أنني أفعل مع أخريات ما أفعل معهن، لكنهن لا يتحرجن من ذلك، ما دامت طلباتهن معروفة، على الأقل، هنَّ يعفينني من حروب أنا في غنى عنها. كم منهن كانت عاقرا، وبعد أن وطأتُها قُضِيتْ حاجتُهَا بفضل خلواتنا الليلية، وقد أقام زوجها العجوز الولائم على شرفي؛ ظنا منه أن الطلاسم التي صنعت لها هي من جلب إليها الولد، وطرد عن رحمها شياطين العقم.

قال لي الفقيه، وهو يداعب شعيرات صدره:

- اسمع يا أستاذ، لم أتذوق طعم الجسد مثلما فعلتُ هنا، ذقت اللَّحم الزموري والأمازيغي والبنوري والشاوي والسطاتي لكن هنا: يا سلام!

(توقف قليلا ليتنشق شقفا من الكيف[10] ثم تابع):

[10] ـ نوع من الحشيش يصنع من نبتة يشتهر بها الريف المغربي في الشمال، ويدخن مثلما تدخن السجائر.

الكتلة الأنثوية هي ما يشدني إلى الحياة في هذا الصقع الريفي القاسيّ، رجل مثلي أعزب في عز الشباب، منفي هنا، في الوقت الذي يجب أن ألتذ وأستمتع وأتجول وأعرف العالم. الجسد الأنثوي هو الخارطة التي من خلالها أدرك أنني ما أزال موصول الحبل بما حولي. الجسد هو الرحمة التي تحل بي حيثُ تعصفُ بي الوحدة والضيم والجوع والبرد بين هذه الجدران الموحشة، التي لا يؤنسني فيها سوى هذا الشمعدان البئيس والمذياع رقم ثمانية. المجد للنساء يا صديقي، وحدهن يعرفن قسوة ما أعانيه فيمنحنني كل شيء: الطعام والمال والشهوة. هن أحسن من أزواجهن وآبائهن وحماقن الذين لا يأتونني إلا حينما يريدون أداء طقوسهم الدينية ببرود تام، ودون استسغاء. فبمجرد أن أنهي الركوع والسجود يجفلوا إلى حال سبيلهم قبل متم الدعاء. ماذا عساك تنتظر مني أن أفعل؟ تريد مني أن أصبح متجمدا، متصلب الأعضاء في برودة ليل هذا الصقع، أو مجنونا خارجا عن نطاق العقل في جفاف العلاقات البشرية هنا.

أنا لا أعرف كم بشرا مر من هنا، كل ما أعلم أنهم كثيرون، وأنهم يختلفون عني سلبا وإيجابا. أنا لا أحب هذه الحياة يا أستاذ، أنا أغبطك، تتجول ولك سيارة وتعيش في المدينة، وتدرس فتيات جميلات وشبانا متفهمين. تذهب إلى السينما، وتتابع الأخبار في الشاشات العملاقة الملونة، وتقرأ الجرائد الممزوجة بطعم القهوة في أفضية البيضاء. أنا معذور، لا أستطيع أن أفهم العالم- مثلك- خارج فضاء الجسد. أنت جئت تبحثُ عن التاريخ، عن سر "كطرينة"، عن رؤيا أبيك، عن سراب اسمه الحقيقة، أنت واهم يا أستاذ. هؤلاء ما

يهمهم سوى لحظتهم: الخبز والجسد، وما دون ذلك إلى الجحيم. أنت تأتي لتنقّب عن (جوا منجل)11 يا أستاذ!!

ما أكرم نساء البلدة! جرّبْ، ربما، تجد عندهن بعضا مما تبحث عنه. هن كريمات. تصور يطعمنني أشهى الطعام نهارا، وفي الليل يمنحنني ما لا يمنحنه لأزواجهن العاجزين، المنصرفين إلى هَمّ الدنيا ووسخها. يقلن لي: (أنت لي طالعة ليك الدنيا واكل الرأس وراكد على البطانة)12، وفضلا عن هذا ينقلن أموال أزواجهن مقابل طلاسم المحبة و"الثقاف13" والربط والشقاق وغير ذلك، مما أعلم ومما لا أعلم! بعضه يصلح والبعض الآخر لا يصلح... جرّب يا أستاذ مثلي ولن تندم، يمكنك الاعتماد عليَّ في هذا الأمر. قد يتيسر لك الظفر بأولاهن وأحلاهن الليلة (ما رأيك؟).

المرأة وحدها يمكنها أن تنقلك صوب غابة أشواقك. أما "عباس" وطينته فمنشغلون بأشياء أخرى لا تفهم فيها أنت شيئا. أنا لا أفهم "كطرينة" التي تبحث عن سرّها إلا امرأة شبقة كان يهواها والدك ورحل عنها، فبقي هواها عالقا في ذاكرته، ثم استفاق قبيل رحيله إلى العالم الآخر. "كطرينة" هي هذا الجسد الذي أَسِرَني هنا، منذ سنوات، كلفتني الكثير من العمر والصحة والمال والعلم... لا أعرف كم ضيعت حقّاً من الأشياء، لكني بالمقابل ربحت ثقافة جسدية لا بأس بها.

---

[11] - عبارة يقصد بها المنقب عن المشاكل النائمة، يحاول إيقاظها، فيكون أول طعم لها.

[12] - عبارة بالعامية المغربية تلمح إلى من يعرف من أين تؤكل الكتف، ويشبهه بالمنشار الذي يأكل الخشب طالعا ونازلا.

[13] - المثقف يعني الرجل المسحور الذي يفقد فحولته بفعل أثر السحر، و"الثقاف" نوع من السحر يفشل الأداء الوظيفي الجنسي للرجل. وهما كلمتان عاميتان بالدارجة المغربية.

هنا الجسد وحده، يمكن له أن يحكي في الظلام خفاياه ولوعته. فهل يمكن أن تحدثني أنت -يا الباحث عن الحقيقة- عن جسد مدينتك. آه كم أشتاق إلى معرفة هذا الجسد؟ هل يشبه الجسد الزموري أو البنوري أو الأمغاري؟؟؟

المهم هو أن تنسى هذه "الكطرينة" وتحكي لي.

الفصل العاشر

السرّ الأوّل: رأس الحكمة

قال عباس وهو "يشقلب"[14] البراد لينسجم الشاي مع نفسه، (تعرف يا ولدي، يقال–والعهدة على جدي الأول لأبي– أن كطرينة سدرة شطب كبرى، كانت تُفَرْعن في هذه الأرض على مساحات شاسعة، وكان بجانبها مسجد عتيق يقصده الطلاب لحفظ المتون. وحدث مرة أن حل بالديار غريب، رث الثياب، متعب الملامح، على وجهه وقار عميق، ونزل يطلب المسجد، فأكرمه أهل الديار، وكان عدد الخيام، آنذاك، لا يتجاوز الخمس. ومع مرور الوقت، أعجب الناس بعلمه وورعه وكراماته. إذ دخل عليه رجل بعد صلاة العشاء فوجد لديه أكلا غريبا: عنب رائع في غير وقته، ودجاجة محمرة وخبز قمح "مكرمل"[15]، وهي أكلة لم يتسن قط لأهل الدوار تحقيقها للفقيه الغريب، وكيف يحصل ذلك، وهم يأكلون خبز الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف؟ ذاع صيت الفقيه السوسي الحامل لكتاب الله والحافظ لمتون كثيرة منها الدمياطي والأجرومية والألفية والبردة والشمقمقية وغيرها، فتقاطر عليه الطلاب من آفاق بعيدة.

---

[14]- يملأ كاسا ثم يعيده إلى البراد بغاية خلق انسجام المشروب.

[15]- المقصود بها المطهو جيدا على نار هادئة فوق الفران البلدي

وبعد أن استأنس الفقيه السيد "بهيليل" بالمكان، وكان هذا هو اسمه، وشكَّل مع طلابه أسرة منسجمة، كلَّف طلاَّبه بالبحث في السدرة العظيمة عن أفعى بسبعة رؤوس كشفت له صورتَها الطلاسمُ الدمياطيةُ، وبينت له الحسابات الرملية و الفلكية إحداثيات تواجدها الجغرافي. فجاء من أجلها قاطعا المسافات الرهيبة، ومتجشما المخاطر والمتاعب الجمة. وحده، يعرف سر هذه الأفعى الغريبة الأطوار، ووحده، يسعى لكشف أسرار طرافة شكلها.

لم تكن المهمة التي كلف بها الفقيه طلابه سهلة. فقد كانت السدرة منتشرة على مساحات عريضة. وعلى الطلبة التسلل في المسارب بين الأشواك والأغصان الدامية لـ"السدرة المحررة"16. وليس أمامه من حلّ غير إيجاد هذه الأفعى، حتى ولو طارت إلى السماء. فهذا أمر الفقيه، وما أدراك ما هو!!

تجند الطلاب كل واحد تكفل بمهمة خاصة بحثا عن الأفعى، البعض يترصد، والبعض يقوم بالحراسة، والبعض يراقب مورد الماء قرب النهر الصغير، وآخرون يتتبعون أثرها على الرمل، وآخرون يحملون أسلحة؛ ويطوفون داخل مسارب السدرة الكثيفة المشوكة.

قال لهم، والليل ينشر ظلامه الرهيب على غابة السدر:

- كلما تفانيتم في البحث اقتربتم من فاكهة العلم، العلم يقتضي التفاني في طاعة الشيخ وخدمته. هل تفهمون؟

---

[16]- السدرة العريقة التي لها جذور عميقة في الأرض، ولم يتم قطعها منذ وجودها الأول.

حشروا رؤوسهم، وبدؤوا ينظرون إلى الأرض. لم يجرؤ أحد منهم على النظر في وجه الفقيه المجرب، كانوا يخافون أن يحدس أفكارهم، ويقرأ ملامحهم. فكم مرة أَخْبَرَ أحدهم فيما يفكر.

وتابع الفقيه حديثه:

- وأنتم تبحثون، اقرؤوا ما تحفظون من متن الدمياطية، وابن عاشر، وسيدي خليل، لا تهدروا الوقت أبدا.

وتشتت الجمع، وعددهم أربعون نفرا، كل يقوم بما يلزمه من أجل الظفر بالأفعى ذات الرؤوس السبعة.

كان البعض من الطلبة يعتقدون أن الفقيه يريد اختبار وفائهم، فيما كان بعضهم متأكدا من عزيمة الفقيه على البحث وحدسه الصائب حول وجود أفعى في السدرة.

لطالما اشتكى أهل القرية من اختفاء ديك أو حمل، لكنهم قلما فكروا في وجود أفعى هنا، قال عنها الفقيه أن عمرها خمسون سنة وما يزيد، ولها سبعة رؤوس، في إحداها حكمة سرية لا يعلمها إلا العارفون. لكن السؤال الذي أرق الطلبة وذويهم هو: كيف عرف هذا القادم من سوس أمر الأفعى والسدرة والرؤوس والحكمة؟؟

بات الطلبة الشبان ينقبون بتفانٍ، يتعرقون وينشفون، فتتصاعد رائحة النتانة إلى أنوفهم، وهم يتلون ما حفظوه عن الفقيه العلامة السوسي! وكانت ذاكرتهم تتلقف، بشكل غريب، ما يردده الآخرون مما لم يصلوا إليه أصلا. وطيلة مدة شهر، كان الطلبة يفعلون ذلك صائمين، ومن الغرابة أنهم لا يحسون لا بالجوع ولا بالعطش. إذ

انطفأت رغبتهم إلى هذه الأشياء. كانت أرواحهم مركزة على ما يبحثون عنه، وعما يحفظونه من متون. أما الفقيه "سيدي بهيليل" أو "سيدي محمد البهلول"، فقد كان يشد حوله سلهامه الأبيض، ويجلس أمام باب المسيد، محركا شفاهه بتعازيم ملغومة، ومتون غير مفهومة، مركزا نظراته الحادة على الغابة التي تنشر أطرافها على الفدادين المجاورة: كان قصير القامة، شديد بياض الوجه، شديد سواد العينين، له حاجبان يقترنان عند أسفل الجبين. صموت لا يتكلم إلا عند الحاجة. وكثيرا ما يستعين بالإشارات وملامح الوجه اختصارا للجهد واقتصادا في الكلام.

كانت أفعى السدرة تظهر له وحده، لكنه لا يمكن أن يقبض عليها بنفسه.

تعب عباس من الحكي، ظننتُ أنه سيشعل سيجارة، لكنه لم يفعل. رفع البراد عاليا، وراح يتأمل سائل الشاي الأحمر، وهو يحدث شخيرا لما يصطدم بقاع الكأس الزجاجي (حياتي)، وكأنه يعصر ذاكرته بحثا عن بقية الحكاية.

مد لي كأسا وأخذ رشفة ثم تابع الحكاية:

حاصر الطلبة الجهة الجنوبية المحاذية للمسيد، وحدها المتبقية لهم. فقد مسحوا الغابة غصنا غصنا وغارا غارا. وفي لقطة عسكرية جماعية داهموا هذا الجانب، وقالوا:

- نشعل النار ثم تراجعوا.
- نضرب الأغصان بالهراوات، نصرخ، ففعلوا.

فوثبت الأفعى إلى الأعلى غاضبة، وفحت، فهلع الطلبة، لكنهم لم يكونوا مستعدين لتركها تزهق من بين أيديهم. فتلك أوامر الفقيه.

تنهدوا جميعا، وسدوا المنافذ، ومثل الأسود رموا عليها هراواتهم دفعة واحدة، فسقطت تترنح في دمائها مثل أضحية العيد. كانوا قد ضربوها بقوة عزيمتهم قبل أن تسقط عليها هراواتهم وأسلحتهم. تنهدوا الصعداء أخيرا، وظنوا أنهم ارتاحوا من هذا الثقل، وهم ينادون الشيخ قصد تسلم الصيد الثمين. لكن الفقيه السوسي "ابهيليل" وقف بهدوء عند رأسها، وتأملها مليا، قبل أن يشير للطالب "الطاهر" بقطع رؤوسها السبع، ووضعها في إناء جلبه معه من سوس.

اجتمع الطلبة الأربعون أمام القدر، وقد بدأ يغلي بالرؤوس السبعة فوق نار ملتهبة. وكلما شارفت النار على الاِنطفاء، أضاف إليها الطالب المكلف بالحراسة الفحم، ليستمر الطهي حوالي سبعة أيام بلياليها. كان الطلبة طيلة تلك المدة يتناوبون على حراسة القدر وإضافة الوقود. كانت تلك وصية الفقيه فضلا عن استشارته كلما حدث طارئ أو تحول على مستوى القدر والرؤوس.

وفي الليلة السابعة، بعد منتصف الليل كان دور الطالب "عبد الرحمن" قد حل، وكان الطلبة كلهم قد كلوا ولحقهم تعب شديد، ولم يعودوا يطيقون تخريف الشيخ الذي يغط في نوم عميق. كان الواحد منهم يقول للآخرين الذين يضجون في الضحك بيأس:

- "جئنا إلى هنا من بعيد لندرس القرآن ونحفظه، وندرس سيدي خليل والأَجرومية والأزهري والألفية، فإذا بنا نصبح، مع الشيخ

سيدي بهليل طباخين وحنايشيين نصطاد الأفاعي ونطبخها وجبات للفقيه ...ما عدنا ندري إلى أين يسير بنا صاحبنا؟ اللهم افعل بنا خيرا، والسلام!".

بات "عبد الرحمن ولد عياد" يراقب النار، وهي ترقص مع البرد، ثم يتصاعد لهلوبها الأحمر المصحوب بدخان الفحم، فيتجاوز القدر. كان يتأمل النار، ويغالب النعاس الذي يستبد بجفنيه، ولما يحس بتضاؤلها، يزندها، ثم يضيف الفحم الذي احتطبوه من الأشجار اليابسة المتخللة للغابة.

كان الصمت سيد الوقت لا يكسره سوى صوت النار، وهي تلتهم الحطب، وكان الفتى عبد الرحمن يستأنس بما يردده من متون حفظها منذ مدة. غير أنه فجأة، وهو منهمك في زند النار تحت القدر، إذا برأس من رؤوس الأفعى ينط من القدر خارجا ليسقط في حجره، فمسحه وأعاده بهدوء إلى القدر، ولم يفطن إلى نصيحة أستاذه بإيقاظه من النوم كلما طرأ جديد على الرؤوس والقدر.

كانت هيبة شيخه تسبق إليه، وكان يؤجج هذا التباعد بينهما خلاف عميق لا يظهر. كما أن عبد الرحمن عرف بعناده الشديد. وبينما عاد عبد الرحمن ليزند النار، فاجأه الرأس نفسه ينط من القدر من جديد و يسقط في حجره، فأعاده عبد الرحمن بعصبية هذه المرة. وقال في نفسه:

- "لو خرجت إلي مرة أخرى لآكلنك ولن أهتم بما سيصير لاحقا... حتى لو طردني الشيخ". كان عبد الرحمن لحظتها، وهو

يبرم مع الرأس هذا التواطؤ، يحس بحدس أنه سيكرر الخروج من القدر. إذ ما هي إلا لحظة، حتى قفز الرأس نفسه من جديد، فتلقفه عبد الرحمن واثقا، وبمجرد ما ابتلعه انتابته نوبة ندم شديدة مثل تلك التي انتابت آدم وحواء عقب الخطيئة الأولى التي أخرجتهما من الجنة، لكنه مع ذلك ظل يزند ناره التي أصرّت على الانطفاء، وباتت تعاكسه، فصمم على إيقاظ الفقيه.

مسح عبد الرحمن على يد شيخه كي يستفيق. فهب السيد اهيليل من مرقده فزعا كأنما كان يداهمه كابوس مروع. تطلع إلى محيا عبد الرحمن يستقرئ ملامحه، ويبحث عن إشارات تؤكد هواجس تخوفه. دعك عينيه مرات ليزيل ما بهما من غبش النوم، ثم سأل عبد الرحمن:

- ما الخطب؟؟

قال عبد الرحمن وعلامات غريبة تفضح قسمات وجهه العريض.

- النار عاكستني وأبت الاشتعال.

رد الشيخ غاضبا:

- والرأس ماذا فعلت بها؟

احمر وجه عبد الرحمن وخرس لسانه. فبرد الدم في أعضاء الفقيه الذي أقعى مثل فرس متعب، وقال:

- أكلتها يا مجنون، اغرب عن وجهي!.

فرد "عبد الرحمن" غاضبا ومعتذرا في آن واحد:

- أنا مجذوب ولست مجنونا.

فأغمي على الشيخ، وبقي، كذلك، زهاء أربعين يوما ، ثم مات بعد ذلك.

أما عبد الرحمن المجدوب17 فساح على وجهه في الأرض ناطقا بأزجاله الحكيمة التي أوحت له بها رأس الحكمة التي سرقها من شيخه امحمد البهلول. ودفن البهلول بنفس المكان قبالة "كطرينة" التي اجتثت عن آخرها ولم يعد لها أثر. في حين بات ضريح الشيخ البهلول فهو ماثلا إلى الآن، ويزوره الناس من كل فج عميق.

---

[17]- عبد الرحمن المجدوب شيخ من شيوخ التصوف بالمغرب عاش في العاشر الهجري، وعرف بأزجاله الرباعية المليئة بالحكم.

الفصل الحادي عشر

السر الثاني: أكف ناقمة

كنت في طريقي إلى السوق الأسبوعي صحبة الفقيه المختار، لما أوقفنا شيخ يعرف الفقيه جيدا، وطلب منا أن نحمله معنا إلى السوق. كان الشيخ عجوزا، ولما قال له الفقيه أنني ابن الكريش تنهد كثيرا، وظهرت عليه علامات الاستغراب:

"إيه مسكين "الكريش" كان رجلا درويش وصاحب نكتة ودعابة، وكائنا اجتماعيا، كنا نبقى ساهرين بمحاذاة السدرة حتى مطلع الفجر. إيه الله يرحمها أيام وخلاص. الكريش لم يكن صديقا فحسب بل كان أخا لي... أين يمكن الآن يا ولدي وجود أمثال أولئك الرجال في هذا الزمن المر...

كنت أسوق في الطريق الترابي المتعرج، وأنظر إلى ملامح الشيخ، وهو يحكي متأثرا. كانت عيناه تدمعان، وهو يتذكر الأيام السالفة التي طوت أحداثا وأزمنة وشخصيات.

في السوق، تحلقنا نحن الثلاثة حول براد شاي والإسفنج. وكنت أتحين الفرصة دائما لأعيد الشيخ "الساقي" إلى الوراء كي يحي لي عن "كطرينة" البائدة.

كان المختار منشغلا بمراجعة البراد، فيما كان الشيخ يدخن بعمق، وينظر إلى الشاي، وهو يتدفق إلى الكؤوس.

قلت:

- يا حاج "الساقي"، هل تعرف شيئا عن كطرينة؟.

قال وملامح جادة ترتسم على وجهه:

- كيف عرفت يا ولدي هذا الاسم، لقد نسيناه ولم يعد أحد يتذكره أو يذكرنا به؟

قلت محاولا إبداء تأثري:

- لقد كان الوالد رحمه الله يحكي لي عنها كثيرا دون أن يُعرِّفَنِي عن كنهها.

تسلم الحاج "الساقي" كأس الشاي، ارتشف منه جرعة. ثم قال:

- كان ذلك، منذ زمن بعيد، يا ولدي، كنا، آنذاك، على أعتاب مرحلة الشباب. ولم تكن خبرتنا الفتية تتيح لنا فهم الأشياء على حقيقتها، كان الاستعمار، وكان شيخ الرمى، وكانت الكرامات، وكانت أشياء أخرى مثل عيشة قنديشة وبوعو وخوخو وغيرها... وكطرينة هذه التي تسألني عنها ما هي سوى "جنان تين" غرز بفعل فاتحة مقلوبة أقامها طلاب المسيد عليه، احتجاجا على صاحبه الذي طردهم منه، ومنعهم من اللوذ بظله والاستفادة من فاكهته. ومنذ ذلك الوقت، والجنان قائم أخضر مورق، لا غلة له. أقام الناس الولائم وسقوه بدم الأضاحي دون أن ترتفع عنه لعنة ذلك الدعاء المقلوب.

الفصل الثاني عشر

السر الثالث: القرية المحروقة

دلني أهل الدوار على رجل كهل يقطن قرية مجاورة تدعى "جعاطة الجنوبية" توجد غير بعيد من قرية "لبيادرة" المتاخمة من ناحية الغرب لموقع "كطرينة". لم تكن الطريق طويلة، غير أن الشمس كانت حارقة. سلكتُ طريقا ترابيا يخترق صفين من أشجار الكاليتوس الوارفة، المورقة. كانت خيمة الشيخ على جانب الطريق مباشرة. أوقفت السيارة تحت الشجر ثم أطلقت الكلاكسون مرتين، فخرج شيخ يتوكأ على عكازته، ويمشي محنيا.

ترجلت وسرت إليه لأعفيه من مزيد من التعب.

قلت له: أنا ابن الكريش مسعود!

عانقني وهو يبتسم. ثم شد بيدي بقوة، واستدرجني نحو الداخل.

كان بيته متواضعا، مبنيا بالطين والطوب والحجر الصلب. وكان الشيخ يعيش وحيدا، بعد وفاة زوجته، ورحيل أبنائه إلى المدينة، جلسنا معا على حصير من السمار. أزال الرجل نظاراته ثم حك عينيه، وراح يتأملني، وكأنه يقرن بين ملامحي وبين ملامح والدي، متسائلا عن أحوالي وأخبار الأسرة، وما تأخر من أخبار الوالد قبل وفاته.

بتنا نتجاذب أطراف الحديث، وجررته للحديث عن (كطرينة). فحكى لي قصة طريفة تخالف ما حكاه لي عباس والحاج الساقي. قال:

- اسمع يا ولدي هي ليست كطرينة من القطران ولا هي ما حكاه لك الرجلان. لقد التبس عليهما الأمر. كطرينة قرية دُمّرتْ، ولم يتبقّ منها غير السدرة والجنان العاقر. تلك قصة مبكية، يا ولدي، ما عُدْتُ أطيق الحديث عنها أو تذكرها. إنها تحيي مأساة قرية وساكنة أكلتها النار ببرودة أعصاب. فعلها المستعمر، منذ ثمانين سنة خلت. كنت ما أزال في بطن أمي لما وقعت هذه الأحداث. وكان الاستعمار حديث عهد بالبلدة. انتفض أهل القبيلة في وجه الحاكم العميل الذي بعثته القوات الفرنسية ليروض الثائرين. ولما وصل إلى البلدة، كانت فوضى عارمة تنتظره من اللغط والسخط. وما إن وقفت سيارته أمام السدرة حتى صبَّتْ عليه الحجارةُ من كل ناحية، ولم يعرف ما يقدم ولا ما يؤخر أمام عاصفة الغضب الشعبي، والأصوات الخانقة وهي تردد:

"يا عميل سر إلى حالك، كطرينة ليست ملكك"

وظل الجمع الهائج ينهش القائد ومساعديه حتى خمدوا غارقين في الدماء. وفي ذلك المساء، وبينما القرية تنعم بهدوء النصر، وإذا بالقوات الفرنسية تداهم المكان مدججة بكل أنواع الأسلحة. فأحرقوا الخيام وهدموها، وأتلفوا المزارع والمروج، وقتلوا الناس زُرافات ووحدانا. وما كاد الصباح يبين حتى بدت القرية رمادا خامدا. وجيء بأحد

أبناء الحاكم المقتول، ونصبوه حاكما بعد ما ملَّكُوه كل الأراضي الخصبة التي كانت تنبسط هناك مثل زربية خضراء. فأذل ما تبقى على قيد الحياة، وسخَّرهم عبيدا في ملكهم وملك آبائهم الذي ملكه عنوة بدون حق. لقد كانوا يحرثون الأرض مثل البهائم، ويرعون القطعان، ويجمعون المحاصيل في نهاية العام. وما يكسبون إلا قوت يومهم الزهيد. أتَرى، يا ولدي، كم هو محزن أن تتذكر هذه الأحداث؟.

كنتُ أكاد، حينئذ، أن أتقيأ من الألم، وأقول في نفسي:

- ما ذنبي، يا والدي، حتى تورِّثني كلَّ هذا الشقاء! مات الحاكم، ومات الناس، وأُحرقت الأراضي بغَلَّاتها، وضاقت الأرض بمن عليها. وما الذي أستطيع فعله أنا في هذا الزمن العويص؟

أحس الشيخ أن كلامه قد حزَّ في أعماق نفسي، وترك أثرا بالغا، فواصل:

- من حسن حظ أبيك أنه لم يحضر تلك الفاجعة. لو حضر لما كنت، الآن، موجودا. مشيئة الله تتصرف بعباده. كان "جهدنا" قليل يا ولدي، ولم نستطع التغلب على الحديد والنار، ونحن لا نملك سوى أرواحنا الشفيفة التي أُزهق منها الكثير. دماء كثيرة سقت هذه الأرض، لذلك، ربما أدمنها الجفاف! الأرض تكره الدماء، يا ولدي! الأرض كائن يحسُّ وله مشاعر أيضا. والبشر لا يراعون هذه المشاعر. ما يهمهم سوى أَنَاهم المضخمة، يُرضونها ولو على حساب العالم كله . هل هناك تفاهة أكثر من هذه؟؟

قَبَّلتُ رأس الشيخ، واعتذرت له. ثم دسست في قُبِّ جلبابه ما تيسر من نقود يغالب بها "دواير الزمان" الصَّعب، وخرجت متأبطا حزنا شديدا، منكسر الخطى!

ركبت السيارة، وغَرَقْتُ في التفكير، كنت كأنما أسوق سيارتي في كوكب آخر.

الفصل الثالث عشر

السر الرابع: الحسناء المغتصبة

كان ل"بوشعيب شوطح" رأي آخر عن "كطرينة".

التقيته بالصدفة، عند العم "عباس" حين كان مريضا. تمشينا طويلا على الأقدام، وأذهلتني ذاكرته القوية، رغم أنه يدخن الكيف بشراهة. كان يذكر الأعوام بالتدقيق، ويسرد الأحداث بالتفصيل المملّ، وكان له إلمام بأنساب القبيلة ورجالاتها أبا عن جد. بل حتى الشجر والحجر والكلاب والبهائم كان يحفظ سيَرها!

توقفنا عند ركام من الحجر. اقتعد حجرة مسطحة شوطح، وطلب مني الجلوس. الحجر بارد يثلج المؤخرة، يجعلك لا تحس بجسدك. أشعل سبسيا من الكيف. شرب الدخان بشراهة، ثم قال:

- يقولون كطرينة بالكاف والطاء. والصحيح أنها بالكاف متبوعة بالتاء.

- إيه هي "كترينا" ومن لا يعرفها ظ!؟

زوجة الحاكم الموالي لفرنسا القائد "بوشعيب المعنكش". امرأة جميلة ما تزال صورتها، الآن، تملأ عينيَّ. لم أر، لحد الآن، أجمل منها.

كانت تتكلم اللغة الفرنسية، وتتحدث أحيانا بلغة عربية ركيكة. وكانت، لما تمر من ذلك النهج (وأشار بيده إلى طريق ترابي قريب) تصل رائحة عطرها إلى كل أنحاء القرية.

كانت تلك الرائحة تهيج حتى الكلاب. تمر كل يوم أحد صباحا؛ ممتطية فرسها الأخضر المدرَّب: شعرها أشقر، عارٍ يتلاعب به نسيم الصباح، عيناها خضراوان مثل زيتونتين، وجهها دائري أبيض مثل الفضة، أما قدها وقوامها: يا سلام! فتنة تتربص بها كل شياطين الإثارة، فلا تستطيع الفكاك من أسرها.

كان زوجها يدللها، ويمنحها حرية فوق العادة. فتستغل تلك الحرية لتخرج إلى الصيد وحدها، دون أن تحسب العواقب ظانة أن هيبة زوجها سترعاها حيثما ولت. وتحميها من مجانين البدو الذين تقتلهم فتنتها العارية.

كان شباب القرية يختلسون إليها النظر، وهي تقضي حاجتها في الخلاء، ويحتلمون على شكل مؤخرتها وردفيها مرات عديدة أثناء النوم ليلا ونهارا. شكّل جسدها الأسطوري أيقونة التشهي بالنسبة إلينا نحن -الشباب- آنذاك... وكانت إثارتها خدر لذيذ يسري في العقول ليحول أهلها إلى جيوش ضارية متوثبة للافتراس... كانت ظريفة، عكس زوجها المتعجرف، دائمة الابتسام، وتحنو على الصغار وتمنحهم القبل والحلوى.

كل شباب القرية، كانوا ناقمين على "القائد المعنكش"، فهو يسخرهم عبيدا له مقابل بطونهم. ويهينهم، بشكل يومي، في المزارع، وفي قصره القريب. وكانوا يتصيدون الفرصة لرد الدين الثقيل. وكانت "كطرينة" هي مفتاح الهم الذي يمكن أن يلوي رأس القائد، ويطيح بكبريائه.

اجتمع الشباب: عشرة شبان أقوياء، واتفقوا على اغتصاب كطرينة جماعيا. كمنوا لها جنب شجر الصبار، ووضعوا لها حاجزا. تأخرت إلى ما بعد الغروب، في ذاك اليوم. ولما سقطت إثر تعثر فرسها بالحاجز. داهمها الشبان العشر. أغلقوا فمها ثم نقلوها إلى كهف مجاور، وتنابوا على مضاجعتها غصبا. كانت وجوههم مُقنَّعة على شاكلة "نينجا". نهشوا جسدها الشهي بضراوة، وأسكنوا رحمها حيواناتهم القذرة، انتقاما من زوجها، ثم تركوها تذهب. لم تستطع "كاطرين" أن تخبر زوجها. ولم يفطن زوجها لما حدث لها، ربما لأنه يتوفر على عشيقات أخريات، ربما لكونها خافت على صورتها لدى زوجها المتكبر، ففضلت كتم الحدث في سريرتها. نُسِي الأمر، لكن كاطرين ظلت في الذاكرة يا ولدي.

- وهل كان والدي الكريش من زمرتهم؟

حكَّ شوطح حاجبه، ثم قال:

- من المفترض أن يكون حاضرا معهم. فكل من حضر الواقعة كان مجايلا لوالدك. لكن لا تأكيد لدي.

قال ذلك، ثم قام من موضعه، وحياني، قبل أن يختفي وسط الأشجار.

ذهبت عند الفقيه المختار.

جافاني النوم طيلة الليل. حيرة عظيمة كانت تشتت ذهني. أية كطرينة يقصد والدي؟

الفقيه المختار رجل ساخن بالرغم من بلوغه سن الأربعين. ولوع بأجساد النساء. يظل عليها ويبيت. حلمه دائما جسد طري. قال لي ذات يوم، ساخرا:

- اليوم سأبرعك[18].

ستأتي عندي امرأتان بدويتان، واحدة لي وأخرى لك. لا تخف أنت ستختار الأول. وإذا لم ترد. سأنام معهما معا. إني هكذا طُبِعْتُ لا يمكن أن أردّ جسد الأنثى. قلت له جادا:

- أنا ما أتيت هنا لهذا الغرض، لقد تركت في فاس والبيضاء هذه الأشياء. أتظن أنني جئت من سجن في الصحراء؟

سكت برهة قبل أن يرد.

- أقصد أنك حيثما ذهبت لا بد أن تضاجع، فذلك الشيء مثل الأكل والشرب. وهو حاجة طبيعية لا بد من تلبيتها. وكما يقال فلكل طعام طعمه الخاص. لا تيأس. اضحك والعب. ثم دع الأمور الأخرى تأتي من تلقاء ذاتها. الدنيا إذا أحبتك تأتيك من كل ريح، وإذا كرهتك تذهب ولو ربطتها بالسلاسل.

كان يتكلم ويقصِّصُ الكيف، ويُقلِّب الأمواج في راديو كبير من نوع ترانزيستور بعصبية. وكان القمر كرة حمراء تصعد من الشرق لتبدد بالتدريج، ظلمة حالكة.

---

[18]- سأمتعك تمتيعا.

وقفت عند عتبة الباب، وبت أتأمل المشهد: الصمت والقمر وعبد الهادي بلخياط يغرد في المذياع رائعة القمر الأحمر. والليل يتحرك، يزحف نحو الغرب، بإيعاز من قمر يشتعل ببطء.

قلت في نفسي:

- المختار معه حق: في هذا الليل الذي يخفي خطايا العالم، كم يحلو طعم الخطيئة!

يتحول الفقيه إلى شيطان، والناسك إلى فاجر تمد يدك البيضاء في العتمة، فلا يظهر منها أثر. تذكرت وجوه من عبر هذه الدنيا ثم اختفى. أبي عاش هنا. أحرق طفولته وشبابه في هذا الفضاء قبل أن يهرب إلى المدينة فارا.

عباس يحتضر ببطء بعد حياة ملتهبة: خوف، قهر، وفقر...عباس الذي جئت من أجل أن يحكي لي، ودّع ذاكرته التي خربتها الثقوب. الحاجة والنسيان طاعونان للإنسان. اشتممت رائحة عطر قادم في الظلام. المختار يدخن الكيف، ويغني مع عبد الهادي بلخياط. قلت له: شبحان قادمان.

قال: - لا تهتم! هما تعرفان الطريق، أفسح لهما.

دخلتا يسبقهما ريحهما البدوي: رائحة الورس والحناء والقرنفل وعطر بلدي. أصبح هناك ثلاثة أقمار. واحد يضيء العالم، واثنان يضيئان الداخل.

تكومت في المانطة. واحدة تقترب مني. لم يسبق لي أن عرفت واحدة هنا. المسجد خلفنا ببضع خطوات. ما الذي سيقوله هذا الفقيه

لله. يعلِّم فتيتهم نهارا، وينكح نساءهم ليلا. أنا لست فقيها. الشيطان يقترب مني. أنا أهرب منه. هناك حواسّ مني تستجيب له، تتواطأ معه. الحائط يحبسني، الحائط خلفي والشيطان أمامي. يتحول الشيطان إلى حسناء، قمر أحمر يدعوني إليه. شيطان الفقيه أقوى من شيطان المرأة. هي تهرب منه هو يطاردها. يحبسها الحائط. يلتحم الشيطانان، صهيل مزدوج يعلو. شيطاني متقوقع، شيطان المرأة يتربص.

قال الفقيه، وهو يرتعد اللذة:

- إذا كنتما تحشمان أطفئا الشمعة.

أنا لم أشعلها لأطفئها. أطفأتها التي تقترب مني ثم ارتمت لاهثة فوقي، فلففتها معي في المانطا. وتركنا الشيطانين يلهثان خلف صهيل غامض. أنا لم أفعل شيئا، لكن شيطانها الجائع التهم شيطاني وأرغمه على الاستجابة والفعل طيلة الليل. كيف أفعل ذلك مع امرأة لا أعرف اسمها حتى. لكنني حفظت شكل جسدها في الظلام، وهو ينقبض ويتمدد مثل أخطبوط. في الصباح، لم أجد الأخطبوط. هل كنت أحلم؟؟

استفاق الفقيه مبكرا وأذَّن ثم صلى بالناس. كم من وجه يملك هذا الرجل؟

جرّ من فوقي المانطا، وهو يقول:

- سبحان الله يا وليدي. قم لتفطر. ثم اذهب لتبحث عن قصة "كطرينة". أظن أنك وجدتها البارحة. هل استمتعت؟ كيف وجدت طعم السمك البوري؟ ألم أقل لك إن لكل طعام بنَّتُه؟.

استيقظت محطم العظام. لقد امتصني الأخطبوط. ما تزال رائحة الحناء والعطر والورس عالقة بجسدي. أستلذ الآن طعمه. آه، كم هو الشيطان رجيم ولئيم!

قالت لي، والظلام واللذة والخوف تحفنا.

- أشتم فيك رائحة البلاد. رائحة شجر العنب والتين والتبن والأرض لما تستقبل أولى زخات المطر، ورائحة صدر أمي الذي أستعيده من حين لحين...هل أصلُك من "كطرينة"؟

همستُ في أذنها. قرط أذنها كبير وفيه رائحة عطر نفاذ، يهاجمني النوم والتعب، وأغالبه كي أتحاشى في حضرة الأنثى الضعف. الأنثى أقوى منا. تهزمنا بالرغم من أنوفنا. تظل تبلع فحولتنا دون أن تكل، فيما يسقط الفحل منهارا عند عتبة أول رعشة:

- فعلا، أصلي من كطرينة، وأنا أعدُّ بحثا أركيولوجيا حولها. هل يمكنك مساعدتي...؟

ابتسمت قبل أن تجيب:

- أنا لا أفهم في هذه الأشياء! لعلك تمزح.

ومرَّرَتْ يدها البضة على صدري المعشوشب. لكني كنت قد نمتُ.

الفصل الرابع عشر

الزاوية:

حكى لي "الفقيه المختار" أن، بالقرب من القرية، يوجد شريف، له زاوية يقصدها الناس للتبرك والاستشفاء من كل بقاع الوطن، ودعاني إلى زيارتها لإرواء مزيد من الفضول. قال لي إنه يزورها بانتظام مرة في كل شهر، وله علاقة جيدة بشريف الزاوي سيدي "امحمد السبيطي" الذي ابتدأ حياته كصانع خزف، قبل أن يتحول في لحظة غضب شديد، إلى "شريف"[19] يعرف خبايا الجن ويحكمه. بل يُعَيِّنُ للناس طبيعة المرض والوصفات اللائقة، والأطباء الذين تأتي على أيديهم العافية.

كان الشريف أميا لا يعرف القراءة والكتابة. وأصبح بقدرة قادر، عقب تلك الحادثة التي يتستر عليها، شريفا قطبا يقصده الأساتذة والأميون والأطر العليا للجيش والأطباء، وشتى أصناف النساء، منهم من يقيم أياما وليالي ينتظر اللحظة التي تشرق فيها أنوار الشريف، فيجود بالحل السحري للمشكل القائم.

---

[19]- كلمة الشريف لها علاقة رمزية بالمقدّس، وبموجب ذلك يمتلك من يدعى "الشريف" القدرة على قراءة المستقبل بناء على حدوس، مثلما يكون قادرا على تسخير كراماته ومواهبه في مداواة المرضى وطرد الجن والعفاريت من الجسد الآدمي.

يبدأ الرجل حضرته بعد صلاة العشاء ولا ينهيها إلا بحلول الفجر يوميا، دون كلل. ويشهد حضرته هاته عشرات الناس يوميا، رجالا ونساء على اختلاف شرائحهم الاجتماعية والثقافية.

يقول للناس، بعد انتهائه من طقس الحضرة، فألهم وأمراضهم ومطامحهم وعوائقهم وشفاءهم، دون أن يفرض على الناس تسعيرة مادية معينة. يدَّعي أنه يفعل ذلك في سبيل الله. يحكي لهم أنه في لحظة غضب، وقف عليه سيدي أبو النور عبد الله المشترائي الدكالي[20]، وألقى عليه عمامته.

وقال له:

- إذا دق بابك أحد من عباد الله فاقضِ حاجته.

كان الفقيه المختار يحكي ذلك في وثوق، وكأنه يحفزني على زيارته وحضور حضرته.

قلت للمختار:

- هل يمكن لصاحب الزاوية أن يفيدني في قضية "كطرينة"؟

ضحك المختار بصوت عال، ثم قال:

- ها أنت تعود بنا من جديد إلى تفاهتك، في الزاوية يمكنك أن تتعرف على فتاة جميلة يصرعها الحب. فتكون هي "كطرينة". أنا أذهب كل شهر لأمتع نظري: البنات الكازاويات[21] اللحيمات،

---

[20]- قطب صوفي استوطن سهل دكالة الفسيح، وله كرامات تشهد بها كتب التصوف ومصادر التاريخ.

[21]- نسبة إلى كازا (Casa Blanca) وهو الاسم اللاتيني لمدينة الدار البيضاء.

النساء الناعمات المتحررات من سلطة الزوج اللائي يملكن سيارة وذهبا وحليا فاخرا ومستوى ثقافيا رفيعا، وربما مناصب تتحلب لها الأفواه وتسيل لعابا.

استشطت غضبا. لكنني نجحت في كتمه. فالفقيه، بالرغم من حماقاته وتهوره، يعد سندا لي هنا! وجدتني أقول له:

- يا أخي أنت لا شغل لك غير البطن والفرج. عيب وعار. أنت فقيه، وعليك أن تكون قدوة!!

قال ساخرا:

- كُنْ أنت وحدك قدوة! أنا أردّ الدين، وأعلّم ما علّمونا إياه. علمني الفقيه أن أكون دائم التهيُّج، طبيعة الكتاب نفسها تفرض ذلك. من "الطلبة" من ينكحه الفقيه مرارا، وكأن النكاح شرط أساسي كي تتعلم بعض الأحرف. إذا أردت أن تحفظ جيدا، وتنتقل بسرعة من حزب إلى حزب عليك أن تكون سخيا في منح مؤخرتك للفقيه..هههه...

قلت متأثرا:

- إخ... على بلد، لا يراك فيه الناس إلا مؤخرة أو قضيبا.

رد الفقيه.

- تتحدث وكأن المدرسة بعيدة عن هذه الممارسات! كم مرة أسمع خبر مضاجعة أستاذ لتلميذة مقابل إضافة نقطة أو نقطتين على ما حصلته في فروض المراقبة المستمرة! ما الذي تنتظره من فقيه نكحه كل الفقهاء الذين تتلمذ على أيديهم، عشرات المرات؟ أن يكون

نبيا. الفقيه يجب أن يكون "نكّاحا" من الدرجة الأولى. أحس برغبة في نكح القرية كلها رجالا ونساء. عليك أن تفعل ذلك، وإلا رموك في أول أسبوع. لا يجدر بالفقيه أن يعاكس تيار أهل القبيلة، بل عليه أن يرعى نهجهم، ويساير ركبهم، إن هو أراد النجاة من مكرهم. هذه هي الحكمة التي تعلمناها في الكتاتيب.

كنا نسير: بعد المغيب، في طريق رملية، والليل يأتي باردا، فيما هو يحكي لي قصصا مؤلمة عن جراحه. جراحه التي برأت متعفنة، وظلت، بداخله، تفور حقدا وكراهية للعالم برمته.

- اسمع يا أخي، لست نادما على أي عمل قمت به، وعلى عكس ذلك، أجد في نفسي رغبة في الإساءة إلى كل فقيه أو طالب أو امرأة من هذه القبيلة.

هناك لذة لا تقاوم في اقتراف الشهوات المحرمة، خاصة مع هؤلاء الذين يفرضون عليك أن تكون كما يريدون.

كنت أمشي، وأنا أتأمل الليل المخيف: آلاف الأشباح تحضرني غَيَّبَهَا الموتُ أو الغربةُ أو ابتلعتها الانشغالات اليومية، فذابت مثل قطعة سكر في ماء ساخن. الصراصير وزنابير الليل والصرار يطلقون العنان لمعزوفتهم الغامضة، هكذا هم يغنون أبدا. لا تعرف أهي معزوفة حزن أم فرح؟ أجدني أتّبع هذا الآدمي المنتكس الذي يُخفي كل هذه الجراح خلف بسماته وحيويته اللتين لا تنقضيان، أتَّبِعه، وأنا أزداد خوفا. من أدراني أنه يفكر في أذيتي أنا أيضا، ما دام يحمل كل هذا الحجم من العدوانية.

فجأة لاح لي، في الظلام، ضوء خافت، تظهر، في انعكاسه، سيارات كثيرة واقفة، وأخرى تجيء لتوها من مكان بعيد.

انتظرنا طويلا كي يبدأ الشيخ حضرته. دخَّن زميلي الفقيه كثيرا من الكيف والسجائر. وحرق كثيرا من الوقت في "تقرقيب الناب"[22] مع فتيات ونساء قدمن من مختلف الأرجاء محاولا استدراجهن صوب كمينه. وكنتُ -أنا- أتأمل هذه الطقوس، وأقول، في نفسي:

- لو كنت روائيا أو قاصا لأوحت لي هذه الليلة بتفاصيل مسرود لم يحضر على بال أحد من الكتاب: هاهنا تُسقطكَ الحكايةُ رأساً على عقب. الزمن كله يتوقف هاهنا.

قال لي الصديق وهو يمص "سبسيه"[23] وينفخ الدخان في وجهي:

- الكثير من النساء هنا، يأتين بحثا عن شفاء لرغباتهن التي لا تشبع بعد أن يقنعن أزواجهن بأنهن مسكونات من طرف جني أحمر يسكن جبل قاف أو جبال الهملايا أو مثلث برمودا، وأن لا طبيب يستطيع مداواتهن غير الشريف الذي يذل الجن حيثما كانت جنسيته. تَصوَّرْ: حكى لي هذا الشريف أن من الجن النصراني والمسيحي واليهودي والمسلم، ومنهم من يتكلم العربية أو العبرية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو الأمازيغية. ومنهم الأخرس والفصيح. ومنهم الفحل ومنهم الخنثى. ومنهم الوسيم والذميم. ومنهم الشاذ والسوي. تماما مثل البشر.

22- يقصد بهذه العبارة في العامية المغربية، الثرثرة، والنقاشات الواهية التي يرجى منها تمضية الوقت.

23- الغليون المغربي.

لكن المشكل أننا -نحن- البشر لا نستطيع رؤيتهم مع أنهم يخالطوننا المأكل والمشرب. ومن الرجال من يخالطوه صحته وزوجته. أنت لا تعرف أن الجني يرى الإنسية الجميلة فيفتتن بها، ويتزوجها عنوة، ثم يمارس معها الجنس، بالرغم عنها وعن زوجها. لكن الشريف يحرقهم ويقطع دابرهم من الجسد الآدمي. لكن عيبه- مثلي أيضا- أنه يطلب الثمن من أجسادهن. تعجبه الواحدة من المريضات، فيطرد منها الجن بعد مضاجعتها. كما أنه يشفي غليل من هن مريضات بالرغبة الجنسية، بعد أن يقنع أزواجهن بضرورة بقائهن في الزاوية مدة طويلة من الزمن. آنذاك، تتمكن الزوجة من مضاجعة الشريف والراعي والفقيه والخضّار، وكل من أعجبها من الزوار.

قلت في نفسي، كم هو سخيف هذا القاع! وكم هو مؤلم التفكير في مصائبه: الفقر، العفن، المرض... ومع ذلك، يتهافت الناس على الرذيلة الحلوة، والخطيئة المبجلة، وعلى اقتناص اللحظات لطعن الآخرين من الخلف، وامتطاء صهوات شرفهم، والتلذذ على حساب كراماتهم.

دخل الشريف مثل الطاووس يجتر جلاليبه، وتتبعه رائحة عطر نفاذ. معه امرأة مدججة بالمسبحات والعمائم الخضر، ويتبعه رجل يحمل مبخرة يتصاعد منها الدخان. كانت العيون تتطلع إليه باستغراب مثلما لو كان القديس أوغسطين يحمل معه صكوك الغفران. جلس في الوسط على جلد خروف "هيدورة". وبدأ يردد، بصوت مؤثر، كلاما غامضا يشبه المديح، معدًّدا حبات سبحته البيضاء. وكان الحضور يردد معه الهيللة تحت تحميس أحد مريديه الذي كان يصول وسط الساحة، مستنفرا الناس على الصراخ، معاتبا الساكتين أو المتكاسلين بنظرات حانقة.

سخنت القاعة بمن فيها، وضاقت، وبُحَّتِ الحناجر بالتهليل. وفي ظل هذا التصعيد النفسي المشوب بالخوف والترقب، يغمى على الكثير من النساء والرجال. تصرخ امرأة هنا، ويسقط رجل هناك. تكثر الضحايا وسط الصراخ والعويل والندب. فيقف الشيخ مزهوا، ويقصد الساقطين والمغمى عليهم. يضع السُّبحة على جبينهم ثم يتمتم بكلمات غامضة، فيقف الساقط ببركة الشيخ.

عند نهاية الحضرة، يدعو الشيخ الحضور إلى الصمت والإنصات، ويذكر أسماء من مرّوا أمامه أثناء الحضرة وأسماء أمهاتهم والمناطق التي حلّوا منها، وأمراضهم وأعراضها، وأسماء الجنيين الذين يسكنونهم مع ذكر السبب وتاريخ المس، والدواء الصالح واسم الطبيب الذي على المريض عيادته، إذا كان المرض عضويا، كما يحدد بعض الأدوية الشعبية المواتية. كل ذلك يتلوه الشيخ بسرعة، وبدون تردد، منبهاً الحضور إلى أنه بمجرد خروجه من هذه اللحظة لن يذكر شيئا لمرضاه. وبعد الانتهاء، يأتي رجال بقصاعي الكسكس وبراريد الشاي للحاضرين، دون أن أنسى أن الحضرة تخللتها بعض اللقطات، مثل: عجن الشيخ للزجاج، شربه للماء المغلي، إشعاله النار من بين كفيه.

يجلس الشيخ في وسط القاعة في مكانه المعهود، فتجتمع حوله النساء الجميلات الممتلئات، يعطينه "الفتوح"[24] نقدا، ويقبلن يديه، يوشوش صديقي في أذني:

---

[24]- إكرامية بطعم المكافأة.

- "أنظر، أنظر يا صديقي الجمال! أنظر، ومتع ناظريك، أترى صاحبة اللون الأسود؟! أغبط هذا الشريف، الذي يطيع بين الأجساد الفاتنة... يا ليتني كنت مكانه! أفكر مستقبلا في فتح زاوية حتى يتحقق لي ما يتحقق لهذا الشريف من حظوة بين النساء!

حبست ضحكة راودتني. وبتُّ أتأمل عينيْ صديقي، وهما تحطان بنظرات ملتذة على "صاحبة اللون الأسود" التي يكاد نهداها يفيضان خارج القميص، وشعرها الأسود الطويل يغطي ظهرها، ويحط على رجلي الشيخ الضائع بين فتن نسائية تتربص به.

وشوش صديقي الفقيه، قبل مغادرتنا، في أذن الشيخ. ويبدو أن بينهما تواطأ حول الجسد الأنثوي المتربص، وذاك فعلا، ما تأكد لي بعد أن أوصلني الفقيه إلى المنزل، ثم غادر. بكل تأكيد، كانا، في الليل، يقتسمان الغنائم، بعد أن يتعاونا على طرد الجني الأسود من الجسد الأنثوي. استغربت الأمر! يخرج جني الجن ثم يعوضه جني الإنس، لست أدري أيهما أسوأ؟ المهم أن قدر الجسد تعس، لأن أنوثته تجعله عرضة لنهش كل أنواع الجنون.

الفصل الخامس عشر

موت عباس:

استيقظت ذات صباح، على لغط مفزع ومؤثر. بحثت عن الفقيه فلم أجده. خرجت أستطلع الموقف، فإذا بأسراب الناس تتجه نحو منزل عباس، مات عباس، أواه، الرجل الذي جئت من أجل السماع عنه، تخلى عني هو الآخر، ولم يضيئ لي ظلمة السر. رأيت في موت عباس موتا ثانيا لوالدي. كنت أسير خلف نعشه، وأبكي داخليا، قال لي في آخر مرة رأيته فيها:

- كم كنت أتمنى أن أراك قبل أن أموت. فقد ذكَّرتني بوجه أخي العزيز "الكريش". لقد اشتقت إليه كثيرا، الله يسهل عليك ما صعب يا ولدي!

تحدثنا كثيرا، وشربنا الشاي، وحدثني عن طفولة والدي، لكن ذاكرته كانت متعبة جدا، ولم أفلح في أن آخذ منه كل ما أريد عن "كطرينة".

بكت النساء، وهلل الرجال مبهوتين. فقد كان عباس رجل توازنات: يصلح ذات البين، وينهي عن المنكر، ويمتصُّ غضب المتخاصمين، ويطفئ نار الفتنة. لذلك، رأوا في موته، موت أكثر من رجل في القبيلة. برحيل عباس، انهارت ركيزة أخرى من دعائم القبيلة!

كنت أنظر إليه في بياض الكفن، وهم يضعونه في حفرة القبر الرهيبة، متحسرا على مصيرنا جميعا! كم هو شقيّ هذا الإنسان! ذاكرة برمتها، وكتلة أحاسيس، وعمر من المواقف، وتاريخ من العلاقات والسلوكيات! يتحول كل شيء، في لحظة، إلى جثة هامدة، مقرفة ومفزعة، يهرب منها الكل، ولا يقبل عليها سوى التراب. حفرة تختصر حياة برمتها، حفرة ضيقة، وثوب رقيق، وكمشة[25] من الأعشاب وماء ورد، ودعوات سريعة، هذا ما تبقى من عباس! وما يتبقى منا بعده! هو السابق ونحن اللاحقون!

كان الفقيه يرتل القرآن ويدعو له. قلت في نفسي، كيف لا يستحضر هذا الرجل مثل هذه المواقف العصيبة، وينتهي عن أفعاله الشنيعة؟ إذا لم يعتبر الآدمي من لحظة الموت، خاصة إذا كان هو من يضع الكفن، ويغسل الميت، ويقرأ على قبره، ويدعو له. فمم سيعتبر هذا المخلوق العجيب؟

في الليل، تحول عباس إلى قصاعي كسكس وقوالب من السكر وأكياس من دقيق وكلام وحكايات وماض من خبر كان. غابت الصورة، ولم يبق إلا أطياف تجُولُ المخيلات والمذكرات العاجزة. لكنَّ عباس، في نظري، بكل ما عرفت عنه ومنه، يظل ذاكرة منسية، وتاريخا غير مدوَّن: تفاصيلٌ من الخيبات، ومواقف مخزية من الصبر والصمود، ونكوصُ إرادة.

---

[25]- حفنة من الأعواد.

بموت عباس، تكسر أكبر جناح يمكن أن أطير فوقه لبلوغ سر "كطرينة". لذلك، تأثرت مثلما لم يتأثر أحد، وأحسست بفظاعة الموت لأول مرة. حينما مات أبي لم أكن ناضجا بما فيه "الكفاية"، وظللتُ أرقبُ المشهد مرتبكا مدهوشا، مأخوذا بقلق اللحظة وتعذرها على الفهم. أما الآن، فقد شهدت الموت المارد، وهو يَحُزّ رقبة "عباس" ومعها حكاية "كطرينة" التي طُمرتْ معه في القبر. مشكلة الموت أنك لا تعرف مصيرك بعد أن تغادر الروحُ الجسدَ، وتُطرحُ الجثةُ في الحفرة. لا أحد يستطيع أن يحكي ما يجري: هناك عالم رهيب ينتظر دون شك، ووقت عصيب يتأبَّى على التصور. فحتى الكتب السماوية لم تفصل في الأمر، تركت الأمر غامضا وملتبسا ليزداد تعقد الأمور. ما تقوله هو ألا نسأل عن أشياء إن تبد لنا تسؤنا.

مات عباس، وماتت معه حكاية "كطرينة". ظل لها التباس الموت نفسه!

الفصل السادس عشر

اعتقال الشريف:

لم يُتحْ لي أن أعرف الشريف جيدا، ولم يتسن لي أسرار اكتشاف طقوسه الخارقة التي تذهل من يزوره. لكني عرفت عنه أشياء من خلال الفقيه: ومنها أنه يستدرج بعض الجميلات من زائراته إلى الفراش، وينكحهن خلسة من زوجته في الزاوية مقابل طرد العفريت الذي يسكنهن. وأحيانا، هنَّ من تستدرجنه كي يعالج عفريتا يسكن أسفلهن، ويطفئ نارا تستعر بداخلهن مثل البركان.

في الغد، لما كنا معا، أنا والفقيه، نحتسي قهوة بمقهى الرياض، ونقرأ الجرائد في مركز قرية أولاد فرج، صادفنا المقالة التالية من ركن في جريدة تفتح ملحقا لنداء الجسد.

اغتصبني "الشريف" في الزاوية!

بعدما نفذ صبري قررت أن أكاتبكم، لعلنا نصل إلى حل لمشكلة ستبدو لكم بسيطة، ولكنها، على العكس من ذلك تماما، وسأحاول سردها لأبين لكم أن بطلها رجل دين متق ورع، لكنه، في الحقيقة، يتظاهر بذلك، فهو يقيم حضرته أي "الجذبة" وهي القيام ليلا بأذكار وأمداح نبوية ليكسب ثقة الناس به، لكن ما يحدث على أرض الواقع هو عكس ما

تتوقعون، فهو يجلب أنظار زبوناته الفتيات والنساء المتزوجات أو المطلقات، ولا يفرق بين قبيحة الوجه أو حسنة الوجه، بالرغم من أنه متزوج ولديه عشيقة يعرفها الجميع.

مشكلتي بدأت في صيف 2001م، لما اكتشفت أني مريضة بمرض يدعى "الصرع"، وأكد لي أحد زملائي أنه يوجد شخص في منطقة دكالة "يحكم" هذا المرض، وقد تشوقت حينها لرؤية "الزاوية" التي يدخلها المرضى، وكانت أول ليلة شاهدت فيها ذلك الجو المشحون بأمداح نبوية تقشعر الأجسام عند سماعها، مما زاد في ثقتي به لأنني اعتقدت أنه يشفي الناس بطريقة ربانية كما يقول، وكان يردد دائما، جملة "أنا لست فقيها، ولا عرافا. هذه مجرد حكمة ربانية، واطلبْ من الله أن يداويك، وأجري على الله"، لكن، بعد مرور تلك الليلة، استيقظ في الصباح وقال لي: "ابقي معي هنا لأن المكان قيدك، يعني "الزاوية أسِرَتْك"، مع العلم أنني ما زلت شابة، وكان متلهفا لمجيئي للمرة الثانية، حيث اتصل بي مرات عديدة، وطلب مني أن ألقاه، وأَبَيْتُ، بحجة أنني سآتي في آخر الأسبوع.

وجاء اليوم المشؤوم، وليتني لم أذهب إلى تلك الزاوية! لقد فرح بمجيئي، وأخبرني أنه مشتاق إليَّ. لكني رفضت تصديق كلامه لأني أشمئز منه. فهو متزوج ولديه أطفال، وكذا غير "مثقف". و"بلدي" رغم امتلاكه النقود والسيارة والسُّلطة. ولما انتهى تلك الليلة من الحضرة التي يقوم بها يوميا من التاسعة ليلا إلى الرابعة صباحا، طلب أن يتحدث معي، وأنه يريد أن يقول أشياء كثيرة تخص مرضي، لكني خشيت أن انجرف وراءه. وفي تلك الليلة الثانية، أكد لي، وأقسم أنه ما زال أمامه وقت لكي يراني أتعذب في ملاحقته، بمجرد أن "يعزِّم" على "جنيٍّ" أو "خادمٍ" عنده ليلمسني بنسمة من ريحه، وسيفعل بي ما يشاء وأنا مطأطئة الرأس!

وفي صباح الليلة التالية، بعد نهاية الحضرة، استلقيت على الفراش بجانب العديد من النساء المريضات، فظهر لي شخص كأنه الشريف بلباسه الذي رأيته به، وهو يناديني باسمي قائلا: "تعالي، تعالي أنا أنتظرك في الخارج" وأقسم أني سمعت حركة حذائه قرب النافذة التي كنت مستلقية بجانبها، ولم أنم تلك الليلة. وفي الصباح الباكر قمت لكي أرجع إلى مدينتي فسألني؛ بماذا أحسست تجاهه؟ فأجبته قائلة إنني مرتاحة له،

وإنني رأيته أثناء استلقائي على الفراش، فضحك مستهترا كأنه لا يعير اهتماما لما رأيته ولما قلته، وبعد ذلك، استفسرني قائلا: لماذا قمت باكرا؟ أجبته بأنني أريد الذهاب، فضحك وأجابني بأنني لن أذهب حتى تطلق الزاوية سراحي! واستغربت لهذا الأمر، وأكد لي بعدها أن شيئا يربطني به. ونجح أخيرا، في أن ينال ما أراده مني في تلك الليلة بلا مقاومة. وقبل ذلك أحسست برعشة في جميع أطراف جسدي، وكأني مكهربة وعقلي مخدر.

تخيلوا أعزائي، أنني بعد ذلك، بكيت طويلا، وأحسست بالندم كأنني لم أكن مقتنعة بما قمت به. وذلك لأنني لم أفعل في حياتي مثل هذه الأشياء، رغم أنني كنت أحب شابا يحبني، وكانت علاقتنا طاهرة إلى حد ما. وعند ما تدنست مع هذا الشخص الذي تظاهر بالتقوى.صرت نجسة وكتمت سري، ومن ثم أصبح يعاملني كأنه لم يعرفني، وكشفت حينها بصعوبة وبذكاء، أن كل من حوله من الفتيات والشابات والنساء صرن لعبة في يدي العفريت الذي أصبح يلعب بهن كالخاتم في أصبعه.

تخيلوا بعد انقطاعي عن الذهاب إلى الزاوية أصبح يطاردني بأشباح تخيفني أثناء نومي.

وأقسم بالله العلي العظيم بأنني في كامل قواي العقلية، ولولا ضيق الوقت والإطالة في الكتابة لكنت ملأت أوراق الجريدة كلها وأنا أحكي ما حصل لي، لقد تجرعت عذابي لوحدي، وتأكدوا أنها ليست أوهاما، بل هي حقيقة عشتها، وإن لم تدركوا الأمر، فلقد داع صيته في منطقة دكالة حيث يقطن. وبدأت شهرته تنتشر في سائر أنحاء المغرب من طنجة إلى الكويرة، وذلك بعد ست سنوات من الخدمة في الزاوية.

إخواني، أخواتي قراء صفحة من "القلب إلى القلب"، هذه مشكلتي التي ليس لها حل، لأني لم أجد من ينصحني، ولكن المجتمع يمكنه أن يساعدني للخروج من هذه القوقعة المشؤومة، وشكرا لكم.

- زنوبة المغربية-

بتُّ واجما، فيما كان صديقي الفقيه يستلقي على ظهره من الضحك، ويقول:

- "يفعلها العفريت، ويفعل أكبر منها"

كانت غيوم عليا تتحرك في السماء، وفوقها بمسافات، كانت تحلق أسراب من الغربان واللقالق والخطاطيف. كانت هذه تباشير تنذر بعاصفة محتملة. وظل هذا الإحساس يؤجج شعورا بأن شيئا ما سيحدث في هذه القرية: في الصفحة الأولى من الجريدة، هناك أخبار

بارتفاع الأسعار في المواد الغذائية، وهناك احتجاجات في صفرو وفاس وغيرها تقمع بأجهزة الأمن. أما النقابات ومؤسسات المجتمع المدني، فقد أُقبرتْ ونامتْ منذ زمان.

هكذا، ظل المواطن عاريا أمام أشواط ملتهبة توجهها عولمة مجنونة وتهافتات مادية مسعورة. الغرب الوحيد المستفيد من هذا التوجه المستهتر، متلذذا يراقب آلام الشعوب التي يوقد نار مأساتها بكلتا يديه.

في الغد، جاء رجال الدرك بأمر من الوكيل، واعتقلوا الشريف ثم هدموا زاويته، واستنطقوا الناس الذين وجدوا في ضيافته، فضلا عن أهل القبيلة المجاورين، ولم يفلت صاحبنا الفقيه، وربما غدا يأتون إليَّ. فقد يثيرهم تواجدي هنا، فيضطرون للتحقيق معي.

الفصل السابع عشر

الحلم:

في مساء اليوم نفسه، التقيت بالفقيه، وقد أطلق سراحه. كان يقهقه، قائلا:

- تركتك وحدك يا رجل تزأر في عريني. هل زارتك إحداهن؟

نظرت إليه شزرا، وقلت:

- على سلامتك، البلدة خاوية بدونك.

فرد متابعا حماقاته:

- الليلة تُسرج أفراسنا، لقد اشتقتُ للتبوريدة، كأنني سجنتُ عاما يا رجل!!

- اشترينا من السوق خضرا ولحما وفواكه، وركبنا السيارة وتوجهنا إلى الدوار. كان الفقيهُ يثرثر غير عابئ بما حدث له. غريب أمرهم هؤلاء البدو: لا يمنحون قيمة لما يحدث. يعيشونه، كما لو كان قدرا عابرا. لا يُدوِّرون الأمور في رؤوسهم، بل بمجرد ما تحدث، ينسونها إلى الأبد. وقد يكررون الأخطاء نفسها مع تفاهتها. لم يكن يتحدث إلا عن شيء واحد هو الطاجين بمعنييه: العشاء والجسد المحتمل.

تلك الليلة لا أعلم كيف، عندما بدأت رائحة الطاجين تفوح لذيذة، تسللت فاكهتان أنثويتان ملتحفتين أردية سوداء تسترهما في الليل. متزوجتان على ما يبدو، حديثتا العهد بعش الزوجية. وزوجاهما، بكل تأكيد، يعيشان بعيداً عنهما. فكان يغلبهما نداء الجسد، فيأتيان إلى الفقيه. هذا الذي يعمل كل شيء في الدوار: يعلم الصبيان ويصلح ذات البين، يَشْهَدُ على الزواج والطلاق، وأحيانا يكون سببا فيه، يغسل الموتى ويقرأ على أرواحهم المسافرة. ينكح النساء الجائعات، ويقصف أرحام العواقر بأطفال لا سلالة لهم.

أشعل المختار الحاكي: الفنان الشعبي الستاتي عبد العزيز[26] يصدح بأغنية "وراه كينة ظروف: حكمت عليها الظروف..."، فرمت الفتاتان الملحفين، وأطلقتا العنان لجسديهما كي يرقصا ويبرزا مفاتنهما: الجسد أفعى تلتوي، يرمي سُمُّ الشهوة في خلايا الضحايا، فتسكر وتلتهب الجوارح. جسدان رفيعان، تُوتٌ بلديٌّ يكشفُ ذاته، لا زواق ولا نفاق: اللون الخمري الذي يُستمدُّ من الشمس الطليقة، والشعر الأسود الكثيف يسدل إلى جنوب الخصر، والمفاتن الحساسة تتحرك بطلاقة دونما ثقل: جبل من الشهوات يفجر بركانه، تَلَّان يفصلهما أخدود، وفي شق الأخدود تشتعل المتاهة. يستمرُّ الجسدان في رقصتهما الشيطانية المصحوبة بنظرات أعين تدوي فيهما الرغبة الجامحة إلى وقت متأخر من الليل، حينها يتوق الجسد للجسد وتزف ساعة الخلاص.

---

[26]- فنان شعبي مشهور في المغرب وخارجه، خاصة في بلدان المغرب العربي، وبلدان المهجر التي يكثر فيها المغاربة.

تحولت ساحة البيت الصغير إلى حلبة عراك شهواني. يشتبك الجسد بالجسد، والشهوة بالشهوة وسط مراغة وحشية غريبة ما عهدتها في إنسان.

قلت: أللرغبة كل هذا الجنون؟! أصوات غريبة تئنّ، تضيع في الظلام، وصوت العراك يفزع حشرات الليل، في الداخل تختلط روائح الحناء والورد والريحان والعطور البلدية روائح غريبة.

يظل جسد الأنثى ينادي طالبا المزيد، ويتحول جسد الرجل إلى بركان تلتهب فيه لافا الشهوة لتروي عطش الأرض البلورية التي أنهكها جفاف قاس!، ليل الرغبة يُطوى سريعا، ولا يتذكر الجسد الذكوريُّ سوى رائحة قرينه الذي يختفي قبل انبلاج الصبح القريب.

تواعدنا -أنا والفقيه السوسي و"الزوهري" (في كفه خط متصل)- على اللقاء في مقهى "المنظر الجميل" على الساعة التاسعة ليلا. ومن ثم، ننطلق صوب مكان الكنز "كطرينة" أو مكان السدرة العتيقة التي أشار إليها الحُلم وعزّزه الفقيه السوسي بخريطة الكنوز التي لا يقرأها سوى حافظ الدمياطية. شربنا كؤوس القهوة مسرعين؛ ثم انطلقنا وسط عاصفة من الظلام والخوف (مُدَّ يَدَكَ تُقْطَعُ). وكلما اقتربنا من المكان كانت دائرة الخوف تشتد، ويزداد نبض قلوبنا وارتجاف أطرافنا.

تبدو "كطرينة"، الآن، ساكنة مثل مقبرة بائدة تحوم حولها أرواح الجن والصوفية والأموات الذين عبروا هذا المكان المقدس الذي تنعق فيه الغربان، وتنعب فيه البوم. وبدأ الندم يتسلل مع الخوف إلى نفسي، وقلت:

- يا ليتني بقيت مع الفقيه المختار أستمتع معه بالطاجين والطرائد الليلية الساخنة، والنوم العميق.

الآن، وسط أعاصير الخوف، أتلمظ حلاوة مجلس المختار، وروعة بيته الدافئ برائحة الطاجبن ودفء الضيفات الكريمات القادمات من أفرشة باردة في ليل القبيلة البهيم.

نزل الفقيه السوسي بخطوات ثابتة، ثم توجه نحو المكان المقصود. تراءى لي يحملق، بوجهه الصغير وجسمه القصير الممتلئ بسبب كثرة "الزرود"، في الفراغ، والظلام يحفُّه من كل جانب. تكاد تحجبه عنا العتمة، فيما ظللنا نحن نراقب ما يجري من أماكننا بالسيارة أنا والزوهري، وكأننا ننتظر من الفقيه أن يمهد لنا الطريق، ويزيح الخوف والشياطين من المكان.

كان الفقيه يفتشُ عن مكان غامض ويقرأ القرآن، فيما يداه تزرعان شيئا ما في الفراغ. تتحول الحبيباتُ التي ينثرها الفقيه في المكان إلى جمرات تنط لتتجمع في نقطة واحدة! أشار إلينا الفقيه بالنزول، ووضع إبهامه على فمه دلالة على ضرورة التزام الصمت، وانطلاق طقوس انتزاع الكنز من شياطين المكان وحراسه. نزلنا من السيارة حذرين. وحمل الزوهري الفأس، فيما كنت أنا أكتفي بالنظر. أما الفقيه فكان يقرأ تعازيمه بصوت خفيض مقرفص قرب النقطة التي باتت تشعُّ نارا.

أزال الرجل الزوهري جلبابه ووضعه غير بعيد منه، ثم بدأ يحفر فوق النقطة المشتعلة. ومع الضربة الأولى للفأس تحولت الحبات

المشتعلة إلى كتاكيت تكركر في وجوهنا بصوت مزعج، ازداد نبض قلوبنا، فيما كان الفقيه ينظر إلينا محرضا على الثبات! وكنا معاً نرقص على الأرض خفافا من الخوف، كأننا نسير نحو حتوفنا. ظلت الكتاكيت تحملق في وجوهنا، ثم اختفت فجأة! وما إن سرى الاطمئنان في قلوبنا، حتى برزت، مع ضربة الفأس، شعلة من النار تحولت إلى ثعابين ضخمة تهاجمنا على حين غرة. ارتعدت فرائصنا، وظل الفقيه ثابتا، يرتل عزائمه بصوت مسموع، كأنه يحثنا على عدم الاكتراث. كنا نبلع ريق الخوف والمرارة على مضض، ونستمد عزيمتنا من عزيمة الفقيه المقرفص جنب الحفرة مباشرة محدقا فيها يبحث عن شيء ما... اختفت الثعابين، واشتعلت فيها النار، بعد أن انتصر عليها الفقيه بتعازيمه، ولم يَدُمْ هدوؤنا إلا لحظة خاطفة، حيث ظهرت امرأة سوداء، ثدياها يتجرجران في الأرض، عارية، ترقص فوق لهيب النار غير عابئة بالحر والألم، وكأنها امرأة خرافية آتية لتوها من الجحيم!

مرت لحظة صمت لم يظهر خلالها شيء، وضرب الزوهري ضربة قوية، فاهتز صندوق كبير؛ وأعاد الضربة فانفتح، وظهرت القطع الذهبية تتلألأ مثل أشعة الشمس، فهلل الزوهري مستبشرا، فانقطع لسان الفقيه واشتعلت فيه النيران، وسقط الزوهري على وجهه في الحفرة، وغبت عن الوعي كأنما رفعني جنيّ ورماني في الهواء والظلام، فاستفقت، وإذا بي في أرض لم أعرفها. سألت أهلها، فقالوا لي:

- هذه بلدة الشعيبات، وتبعد عن "كطرينة" بأربعين كيلومترا!

كنت حافي القدمين، مهروس الجسم، أحسّ برضوض متفرقة في جسدي، ولمحت بقعا حمراء في جلدي، ولما استقمت واقفا دارت بي الدنيا، وغمرني دوار عميق، فتقيأتُ ثم سرت قاصدا أي مكان آخر إلا كطرينة.

كنت أمشي مغشيا عليَّ، أرى الحقائق مقلوبة، لا وعيي هو يتحكم في جسدي، كأنني مسحور. لم أعد أعرف الأمكنة والأزمنة. أسير على غير هدى، وأعيش كما اتفق. مجنونا أصبحت. سكنني الجن الذي كان يحرس الكنز. الجن الذي صارعه "عبد الرحمن المجذوب" حول حكمة رأس الأفعى ذات السبع رؤوس. لقد انتقم الجني حارس المكان من جدي المجدوب في شخصي أنا، ورد الاعتبار لنفسه!

ساح بي العفريت. لا أعرف اسمه. قادني إلى المقابر والأضرحة، وأنساني كطرينة والجامعة والطلبة وركاما من البحوث التي تركت مسودّاتها على الرفوف. هذا ما جناه عليّ والدي.

الفصل الثامن عشر

"ربيعة" في الحكومة

استغل الشواذ مسألة الانفتاح، وارتقاء الحريات العامة حقوق الإنسان، فأسسوا جمعية لحماية حقوق الشاذ جنسيا من الحصار والنبذ والتهميش المجتمعي. وشكلوا جهة للدفاع عن حق الشاذ في أن يعيش حياته مثل الآخرين، بعيدا عن القهر والاضطهاد والاحتقار، وسوقوا قضيتهم وطنيا ودوليا، مطالبين بأن تراعي منظومة القيم خصوصياته ووضعيتهم الاجتماعية. وترأس "عماد"، بحكم موقعه الاجتماعي، الجمعية التي خولت له أن يدخل حزبا سياسيا، وأن ينجح في الانتخابات البرلمانية، ويلج بوابة الحكومة من بابها الواسع. ومنذ ذاك الوقت، صار، للشواذ، حق التزاوج والتمتع بالحياة علانية ودون تكتم.

بفضل هذه الجمعية، لم يعد، هناك، فرق بين الرجل والمرأة، صار للمثلية مكان في التداول الرسمي، ولم يعد، هناك، من يقدر على الجهر بكون، ذلك، منكرا مخافة أن يتهم بالإرهاب. كل من دعا لإصلاح القيم، وحفظ الحياء والأخلاق أصبح يتهم بكونه رجعيا، ويستغل الدين من أجل أغراض سياسية.

أصبحت شريعة الجسد وحدها تحكم: الرجل ينكح ما يشاء من نساء، وإن عجز، يمنح نفسه للآخرين. تلك شريعة أبي نواس الشعرية

تتحقق في القرن العشرين وما بعده: تداولت قصاصات الأنباء في الجرائد عن تزاوج شواذ ذكور وإناث في سيدي علي بن حمدوش ومولاي بوشعيب الرداد ولالة عائشة البحرية وبن يفو[27]. تناكحوا مثنى وثلاث ورباع، وابتدعوا، في فن النكاح، ألوانا، جعلوه همهم اليومي، ولم يكتفوا بذلك، بل أقاموا الأعراس لفضح شذوذهم. ما همهم استنكار الناس أو تواطؤهم، همهم إطفاء الرغبة الشاذة التي تستعر بداخلهم مثل نار أكول... في هذا المحيط العكر، الملوث بالذات الممسوخة، كان ينتعش عماد وتتضخم ثروته، ويتسع نفوذه.

هي الدنيا هكذا، فاجرة وسخيفة، تحب القذرين مثلها، تغرهم وتفتنهم عن طريق الحقيقة. الدنيا كلبة تعشق الكلاب لأنهم يلعقون برازها، ظنا منهم أنه عسل. فيما هو ليس سوى وهم!

سُمِّيَت الحكومة المنتخبة حديثا بـ"حكومة ربيعية"، وكان أول ما قامت به أن حررت العاهرات ودافعت عن الشواذ، وكثر النحس والمنكر، وامتلأت الشوارع بالرغبات التي تسير في كل الطوارات. وبدل أن تحرر القيم الجميلة، أقبرتها إلى الأبد.

لم يسأل "عماد" عن أسرته، ولا عن أخيه الذي أُقبِر في مارستان بويا عمر، وانتقل منه إلى برشيد وحيدا مع جنونه وحلم "كطرينة" الذي أزهق لبه. كان مشغولا بتثبيت موقع الطائفة التي ينتمي إليها، خوفا من أن يعود إلى الأسفل فلا يجد من يحتضنه. بئس الحكومة التي يقودها شاذ يمنح مؤخرته لمن هب ودب كي يرضي نعرة تسكن أسفله.

27- أسامي لأولياء صالحين شهيرين في بلاد المغرب، تزار أضرحتهم، وتقام فيها مواسم ومهرجانات سنوية.

كثُرت جمعيات النساء العاهرات، والنساء القوادات والأمهات العازبات والرجال الشواذ والسحاقيات واللواطين. وبالمقابل، تفككت الأحزاب التقدمية والنقابات، وبدل تشجيع المواهب والفكر والإبداع، توجهت إرادة الحكومة الشاذة إلى التحريض على العري والإباحية والسياحة الجنسية، حيث حملت شعار "جَوَّعْ كَرْشَكَ وشبَّع تحتك".

وكانت النتيجة، أن كثرت الفواحش "بالعلالي" وتعاظم الفقر وتفشى، في الناس، مثل الطاعون، فنخر عظامهم وأنهكهم حتى إنك ترى الواحد يمشي، وهو هيكل عظمي ليس إلا! ومع ذلك، تراهم مصرين على ممارسة الجنس الرخيص في المواخير التي أصبحت مثل الدكاكين، وحتى في الطرقات وشرفات المنازل.

عندما تخرج من منزلك في الصباح تتعثر بالعوازل الطبية المستعملة، وحينما تدعسها عن غير وعي منك يفرنقع منها القيح والمني ودود الرغبة الذي لا ينتهي. المتزوجون هم الآخرون استلذوا طعم العاهرات، وهن يقفن على الطرقات يعرضن أنوثتهن ببطون ومؤخرات شبه عارية. الشواذ من الرجال، يعرضون بضاعتهم وأعضاءهم الجنسية في أسواق الجنس بالليل والنهار، ومنهم من وضع رهن إشارة الناس مواقع وعلب إلكترونية عبر شبكة الانترنيت يعرض فيها أعضاءه الحساسة ليستدرج الزبائن إلى فخ الإثارة الجنسية، معززا إياها بعناوينه وهواتفه الشخصية. بدل أن تحرر هذه الحكومة الخصية، الحق في التعبير الجميل والخلاق والقيم الرفيعة، حررت الجسد والرغبات والعقد الجنسية من العقال تحت شعار التحرر، وذريعة الانطلاق، ونبذ الكبت.

الفصل التاسع عشر

رحلة البحث عن العقل المفقود

كانت أول عتبة طرقها المجنون "ولد الكريش" هي قرية سيدي مسعود بن الحسين "رداد العقول الطائشين" ذلك الذي تأتيه الضحايا فرائس ثم تعود منه عرائس. في خلواته، تتداوى، عشرات الحمقى والحمقاوات من خبلهم، بلا أدوية، ويعودون مع عائلاتهم في نهاية الأسبوع. تغيرت ملامح "ولد القريش"، اتسخت ملابسه وغارت عيناه من التعب (سار حوالي ثلاثين كيلومترا على رجلين حافيتين) والجوع (لم يأكل منذ تلك الليلة السوداء). وكان شعره معفرا بالغبار والتبن، ومنظره مخيف للغاية.

حط، بالصدفة، في قريته التي هرب منها أبوه منذ خمسين سنة أو ما يزيد، من بطش الاستعمار، وعاد إليها هو ليزهق عقله وراء حلم مجنون. كانت أحواله تقوده إلى القبة الخضراء. دخلها ثم أجهش في نوبة بكاء شديدة، تحلق حوله الناس والزوار، أرادوا معرفة السبب، لكنه كان منشغلا بعوالمه الرهيبة، مقعيا، خائبا، مثل ناسك ارتكب خطيئة كبرى.

لبث في الضريح مدة، وكلما هاجمته النوبة، بكى مثلما اتفق حتى تختلط دموعه بمخاطه فتملآن صدره وسائر جسده. أصبحت رائحته كريهة، صنان، وذباب، وقمل، وبرغوث، عفن، ووسخ، وبول،

وغائط... المأساة كلها اجتمعت هنا. وكان طيلة الوقت صامتا، حتى في لحظات الصفاء لا يحاول أن يكلم أحدا. ينظر إلى السقف، ويتأمل مبهوتا عالما من عدم. كان بعض الزوار، وحتى المشرفين على الضريح من حفدة السيد ومن الأدعياء الذين يسترزقون من هذا المكان، يحاولون دفعه إلى الكلام، لكن دون جدوى.

أدخلوه خلوة الكرمة، وتركوه هناك، ذهب بهاء وجهه، وبرزت عظام هيكله العظمي. وكان، كلما أتى الأطفال ليطلوا عليه في الخلوة، يزأر في وجوههم بصوت غريب، فيتراجعون ويرمونه بالروث والحجر والبراز، دفنوه حيا في قبر يبلغ عمقه سبعة أمتار، يظل على الجوع والعطش حتى يأتي من ينقذه من الزوار بكسرة خبز أو سيجارة.

- "ما هذه بحياة!"

كلمة يقولها كل من يتردد على القبة زائرا: الحفرة عميقة وباردة، ونتنة، براز، بول، قيء... لا تظهر منها الشمس ولا تطل على زرقة السماء. أي استشفاء هذا الذي يدفعون إليه! موت في الحياة! يدفن الرجل حيا في قبر لا قيمة فيه لإنسان . والغريب أن المريض، أحيانا، يأتي من تلقاء نفسه، والأغرب من ذلك أنه قد يُشفى، بعد مدة، ويعود إلى رشده، ويعيش حياته الطبيعية، ويستعيد قوته، فهل يا ترى الجنون يروض بهذه الطريقة؟؟

يفسر بعض الذين يشرفون على خلوات المساجين بطقوس كلها روحانية، يقولون بأن الجني يسكن الآدمي ويسحق عقله، ويجعله مخبولا، وقد يتزوجه، أحيانا، فتكون لحظة جماعه به هي حالة الصرع

التي يدخلها المريض. ولأن، للولي الصالح، هيبة لدى العفاريت والجنون، فإن المريض ينفعل مع هذه الأمور، وبالتالي يجد طريقة إلى الشفاء، بمجرد إقامته في الضريح، لأن الجني يهاب هذه البقاع التي تسكنها روح الولي الصالح، فتطرد الأرواح الشريرة من أي جسد يحتمي بها ويستجير بتربتها المباركة.

والغريب أيضا أن المخبول هو الآخر يصبح له ميل عميق لهذه الطقوس، ورغبة جارفة في زيارة كل أضرحة العالم. إذ يجد فيها راحة مثالية. يدخل "ولد القريش" قبة الولي "بويا عمر" في بهوت: الجسد النحيل يرتعش، العينان زائغتان، الأنفاس متهدجة، يضيع في الزحام. نساء شابات في مقتبل العمر، شباب في عمر الزهور يطوفون بالتابوت، زئير، صراخ، لغط، خوف، بصاق متطاير، ارتجاف يتصاعد في الجسد والروح، لا تناغم في الفكر ولا في الحركة.

يتحرك "ولد كريش" ببطء، يتبع الأجساد التي يغلي فيها الحال، ورويدا رويدا، يبدأ في الإسراع، تدور الدنيا في عينيه. الرؤية ثقب في الدماغ، شيء ما يصعد الجسد مثل نار أكول، حرارة تلهب والأحشاء وتصعد إلى الرئتين، عاصفة من البكاء والعويل والزفير تطبق على العنق والحنجرة، أي موت هذا؟! أي حال هاته التي تحمي وطيسها في الجسد الواهن؟!

يرمي ملابسه، يبقى عاريا، يشكو.

- "أبويا عمر لقد أحرقني ميمون، شوتني السعدية، لقد كويتني يا عمر، رقَّ لحالي يا عمر، يا صاحب الخلوة! أطلق سراحي أرجوك

عممم عممممم"، وفي آخر تهيج لأنفاسه، يصطدم بالجدار، ثم يسقط مغمى عليه، لا يلوي على شيء، ولا حركة، في الجسد، غير صعود النفس وهبوطها.

يستفيق من غيبوبته، يجد نفسه عائما بالعرق، بالرغم من الراحة المؤقتة! يظل دماغه شاردا، ويدور ذهنه في المتاهة نفسها: رجل يعيش خارج العقل، خارج العالم. إنه لا يفكر حتى في الوجهة التي سيتخذها غدا.

الفصل العشرون

من مذكرات راوي الرواة:

قضى راوي الرواة مدة طويلة في الأضرحة والزوايا يتتبع أخبار الأستاذ لما استبد به سعر الجنون، وساح في بلاد الله الواسعة، بحثا عن العقل المنفلت... ولما كانت الإقامة في هكذا أجواء مضنية ومملة وتشعر بالجنون نفسه، فقد انشغل الراوي، درءا لهذه الضغوطات والمشاعر، بكتابة يوميات بعض الحماق الذين سمع عنهم أو شاهدهم! وتعميما للفائدة رأى الكاتب الضمني، بعد استئذان من الراوي، أن يدرج هذه المذكرات لأهميتها الكبرى في إضاءة النص، وكشف جوانب معتمة من المحيط الذي تعيش فيه الشخصيات. وقد فضل الكاتب تركها على الهيئة التي دونت بها دون تدخل أو حذف أو تعديل.

وتوزعت كتابة هذه المذكرات بين ثلاث مواقع شهيرة، يعرفها العام والخاص، موقع سيدي مسعود بن حسين، وموقع بويا رحال، وموقع بويا عمر، وهي مواقع صوفية استثنائية بقدر ما تتباعد أو تتجاور، يظل يشدها خيط رفيع، وهو أنها كلها تعتبر مارستانات شعبية يقصدها المواطنون بالألوف، التماسا لأغراض متفاوتة.

1-"الطار وعلا" في السماء كيتعلى:
عشق غريب للفلاحة ومعاشرة طريفة للناي

اسمه الحقيقي (مبارك)، لقبه أهل قبيلته ب"الطار وعلا"، نظرا للسرعة التي كان يتحرك بها لوحده بنرفزة واضحة، يترجل الطريق يوميا إلى الفيلاج قصد الحصول على لقمة العيش والأنف. ينتعل حذاء بفردتين مختلفتين متآكلتين: شعر طويل مشعث، مشية متمايلة وإدمان على تناول السجائر/ عفوا أعقاب السجائر: يجمعها من المقاهي والطرقات، يفتت تبغها ثم يلفه في ورق أغلفة السكر، ويمتصها بعنف، دون كلل أو ملل، كأنما يمتص حلمة الأم. يضع على جلده المخشوشن/ المتشقق أسمالا مرقعة ومتسخة.

وتتضارب آراء الناس بخصوص أسباب فقدانه لرشده: منهم من يُحَمِّل النسوانَ مسؤولية ذلك، وآخرون يُرْجعون ذلك، إلى تمرد مبارك ضد بركة الوالدين والأولياء الصالحين، بحيث إن "الطار وعلا" هذا؛ صحبته أمه إلى أحد السادة الأولياء لعلاج مرض جلدي، فكان أن تغوط وتبول على قبره بداخل الضريح! ومنذ تلك اللحظة، جن وافتقد لبه... الناس كلهم متحيرون في أمره... كيف كان وكيف أصبح؟ الجمال، الصحة والمال، كل شيء تحول، في لحظة قصيرة، إلى مرض، فقر، وعفونة! تخلى عنه أهله، وحرموه حقه في الإرث، فساح في أرض الله الواسعة، وحيثما وجدت مزرعة أو حقل أو بستان، فهو يزورها ويخدمها بشكل عجيب، ودون علم من صاحبها ودون أن يطلب أجرة مقابل ذاك، كأنما يفعل ذلك لإشباع حافز داخلي مُلِحٍّ. "الطار وعلا" يتعامل مع التجار والفلاحين، ويقوم بخدمتهم مقابل دراهم معدودات، ولأنهم يثقون فيه، فهم يأتمنونه على تجارتهم وأموالهم، ونادرا ما يفقد رشده في مثل هاته المواقف، لكنه عند ما

تشرد بلبه الشياطين، يصيح بأعلى صوته! وعوض أن يمدح السلع، يهجوها وأصحابها - حاطا من قيمتها ومعوضا الجودة بالرداءة: "تعالوا يا عباد الله من أراد أن يشتري ما لا ينقصه ولا يضره، جميع الأشياء المضرة موجودة عندنا"... ولم يكن بطلنا -الطار وعلا- يضير الناس في شيء، لكنه كان يزعج النساء والأطفال بحركاته العشوائية، ويثير في قلوبهم الفزع والرعب، وإن لم يثبت أن آذى أحدا.

يقطن هذا (الأحمق) كما يسميه أهل البلد بـ"نوالة" من القصب والتبن ويقضي ليله في طقوس خاصة، سامرا، في حلكة الليل، مع أنين نايه، وشجي أنغامه مرددا، بصوته الصداح، أزجالا ابتدعها بنفسه، تنضح معاناة واختبالا. الآن، بدأ عوده يَهِنُ، وظهرت على وجهه علامات الكهولة، كما ضعفت تحركاته. ورغم ذلك؛ ظل حاضرا بقوة في أذهان الناس ليس بفضل شغبه فقط، بل لأنه يمثل ضحية وأرضا خصبة لوضع تكهناتهم وإسقاط أحكامهم (ذاك سببه السخط— عاصي الصالحين -نيته غارقة- مجذوب خاطف حصير الجامع...)، بينما يرجع البعض الآخر. أسباب سقوطه في شرك التيه والخبل إلى زواجه ممن كانت تعشقه من الجنيات، ففضح سرها؛ مما جعلها تنتقم منه، وذلك بأسر عقله في الثلث الخالي؛ وَتَرْكِ جسده يتعذب بحمقه... والواقع أن الحس الرهيف الذي كان يتمتع به "الطار وعلا" جعل طاقاته العقلية تنفجر أمام إكراهات الواقع وخيباته وضنك المعيش. لذا فهو صمم على أن يرافقه جنونه إلى السماء بعد أن يعذبا بعضهما البعض في الحياة الدنيا...

2- بهيجة...

أسطورة البحث عن شهوة مفتقدة

لا يمكنك أن تغادر أرض بني فرج أو تتجاوز ضريح سيدي مسعود بن الحسين دون أن تسمع عن بهيجة، المرأة التي لا يدري أحد من أين قدمت ولا ما الذي أصابها، وقد تحرك الصدفة إلي أن تلقاها، فتصدمك بحالة رثة وملامح متسخة... قد لا تسعفك قابليتك للأكل في أن تتناول وجبة ما لو تذكرت سماتها: بلقاء اللون، مما يتيح للوسخ أن يتربع ويزهو... وللقمل أن يسرح كقطيع غنم جائع... الغائط يلوث ثيابها السفلى، وبول نتن يغطي تفاصيل الجسد...

تصلك الرائحة عن بعد خطوات... ولا تفارقك إلا بعد أن تنام وترى ما لم تر من أضغاث أحلام... تسير دون توقف أو تلفت... يرميها الأطفال بالروث والحجارة، فتبكي كطفل صغير ويقطر من أعينها القيح والدم وكثير من الألم... ويسافر بها الأنين والصوت الخافت المبحوح إلى السب والشتم بكلام ناب. تدخن بشراهة كل ما تجده أمامها من أعقاب السجائر. تقف وسط الطريق، وكل من مر أمامها تخاطبه بصوت الاستعطاف مادَّة يديها النحيلتين:

– أعطني شهيوة يا خُيِّي!

لا ترهق نفسها بالتسول أو البحث عن الطعام؛ فهي بمجرد أن يستبد بها الجوع والحاجة إلى الحياة، تقصد كل ما تجده أمامها من خبازين وبائعي السمك المقلي وبائعي العنب... تختطف ما يكفي لسد زحمة الطوى ثم تهرب غير مبالية بضربهم وسبابهم. تأكل بشراهة،

ودون تذوق. معدتها طاحونة لا تهدأ ولا تتعب، تقضي حاجتها حيث اتفق؛ وهي تبلع أو تقتل القمل أو تزيل الأوساخ من على جسدها الذي ملأته التجاعيد...

تجولُ ساحات ضريح سيدي مسعود بن الحسين وشوارع القرية بأرجل حافية مدماة ومتشققة بالجروح والجذام، وبوجه يثير التقزز والاشمئزاز... لا تتعب من السير، نصف جسدها السفلي يكشف عن أشيائه الأكثر حساسية، مما يدفع الفضوليين والمتلهفين لمعرفة الحواس المثيرة للجنس إلى اختلاس النظر... ترَى أحيانا الناس، فاغرة أفواههم يتمعنون أعضاءها التناسلية، وربما بتلذذ... هذه اللامبالاة جعلتها تؤدي الثمن غاليا، حيث انفرد أحدهم بها، ذات مساء، بركن قرب جدار المارشي القديم، واستل سيفه المخبوء وشحذه في جبها المهترئ...

طعنة قاتلة أفرزت طفلا ذكرا وتسعة أشهر من الوعثاء.

ولما أزف الوضع، نقلوها إلى مصحة عمومية، حيث تخلصت من مولودها... وظهرت بهيجة، بعد ذلك، بالسحن نفسها. وعندما كان يسألها الناس عن ابنها، تبكي ويختلط ريقها الوسِخ بالدموع... وقبل الحمل، كانت تنسب حملها إلى أحد المجانين. وما أكثرهم! وتقول وسط الملأ: حملني عُمَر القوّاد...

لا يعلم أحد أين تبيت. فليس هناك من ينشغل بحال هؤلاء عندما يجن الليل... بهيجة مثلها مثل الآخرين، يقصدون الهوامش والأسوار القديمة والردهات والمسارب المظلمة والدور المهجورة بعيدا

عن أنظار الناس... إن امرأة مثلها، عارية من كل حماية، يمكن أن يضاجعها حتى الكلاب. تغالب أمواج الهلع والخوف، وتحارب نوائب الليل بصدر عار مثل الحيوانات البرية الضالة. ليس هناك من يتركها تستند على جدار بيته حتّى.

لست أدري كيف ستستطيع امرأة كهذه أن تؤمِّنَ الحياة لوليدها، في مثل هذه الظروف! لذلك فقد فعلوا خيرا لما احتفظوا بالوليد في إحدى دور الأطفال المشردين. سحابة تمضي وأخرى تجيء، شمس تغيب وأخرى تسطع، وبهيجة هي هي، لا تزداد سوى سوء ورداءة أحوال، تراها شتاء مثلما تراها صيفا. تحمل سوءاتها وعيوبها: تفضح شراسة زمن لا يرحم. تعيش زمنها كما تريد منشغلة بحمقها عن ضوضاء العالم المقيت، وتُحَلِّق في سماء الجنون كعصفورة طفلة.

بهيجة تموت كل يوم ألف مرة، لكن جنونها العنيد يأبى عليها السفر صوب الحتف... ويأبى عليها الناس المكوث في دائرتهم. حينما تمر في الشوارع؛ الكل يطردها، ولا تسمع سوى: (هيه، سيري فحالك، تفو... الصباح لله!).

فأي جحيم سيستقبل بهيجة! ومن ينهج في الحياة سيرتها غير القمامات والأسوار المهجورة التي لم تعد تصلح سوى للتبرز والتبول والمزابل. وما أكثرها في زمننا الموحش!

3- المصطفى السوصوليكس:

النمر الآدمي الذي روّضَتْهُ السلاسل والفلقات

السوصوليكس بدويٌّ جامحٌ رفضته حتّى المنونُ، ربما أن طعمَهُ لم يُستسغْ بعد، فهو أشد شقاوة من أولئكَ الذين كَتَبَ عنهم فيكتور هيكو في بؤسائه الذائعي الصيت. مع أن صديقنا "المصطفى ولد الكحل" كما يسميه أهل بلدته لبيادرة، أو كما يسميه أهل السوق (أو هو العفريت الذي يشرب الزيت)، اعترف له أقرانه بالبسالة والذكاء في الصغر، وما يزالون يتحدثون، بإكبار، عن بطولاته في العراك والعمل. ولعل فزعهم منه ومن جبروته الذي فُرض عليهم فرضا أبعدهم عن التتبع، عن كثب، لما حدث له، حتى فاجأه الخبل والتيه في عز شبابه. لذلك ليس غريبا أن نلفيهم يتهربون من هذا الموضوع، ودون شك، أن هجرته إلى المدينة وعشقه المجنون لإحدى بنات عائلته، ورفضها له أجّجا نار الخيبة في نفسه، فذاب عقله في اللاشعور وأفسح الشرفات، على شساعتها، للتيه في دروب الحمق، فصار مثل البركان الهائج الذي لا يخبو نشاطه عنفا وتمردا، وتميز باعتداءاته على أبناء بلدته، خصوصا أفراد أسرته: فكان، من حين لحين، يهيج كثور مارد فيعيث في الأرض فسادا.

فكم مرة هاجم والديه بمذراة أو بمدية، مهددا إياهم بالقتل، فيستغيثون بالجيران كي يخلصوهما من بطشه. وكان أهل الدوار يستعملون الحيلة تحاشيا لأذاه. وقد أصيب أبوه نتيجة ذلك، بمرض الفالج الذي لم يفارقه حتى نقله إلى العالم الأخر. أما أمه، فقد أفقدها كيده رشدها فخسر حنانها، فكرهت حمقه، وشكته للناس بعدما

أفسد دقيقها واستعمله جيرا يطلي به الأسوار والحيطان... وبعد ما بعثر فلاحتها، وكسر أواني أخيه الذي كان يشتغل قهوجيا بالسوق الأسبوعي القريب من بلدة "لبيادرة"!

نقلته أمه، بمساعدة أهل الدوار، إلى خلوة سيدي مسعود بن الحسين. فَوُضع رهن الحجز، لكنه هرب، بعد أيام، ليلا، واعتدى على إخوانه، واختطف القدر بلحمه ومرقه وتركهم يتضورون جوعا وحنقا، فشكته أمه من جديد إلى رجال الدرك الذين لم يتوانوا لحظة، في القبض عليه واعتقاله وإشباعه ركلا ورفسا مدة ثلاثة أيام، غير أن ذلك، لم يزده إلا تمردا وإن قلت قواه ووهنت.

سمَّته أمه ب"المسخوط" ودعت له بالجذام والجذري، وتسلح إخوانه، وَوُضعوا في حالة استنفار قصوى لصده وردعه، وأفلح بعض المحسنين من البلدة في نقله إلى مارستانات "برشيد" ثم "بويا عمر"، وظل هناك، مدة ثلاثة سنوات، ثم ظهر مرة أخرى بوجه مختلف ذي ملامح بشعة وصور غريبة...

كان يجوب القرية صامتا لا يتكلم حتى ولو ضربته، ساهما في عالمه الخاص بنظراته القاتمة ومشيته المخاتلة وسماته المهملة بشكل صريح.. لم يعد إلى خيمة أمه وإخوانه، بل قَطن بدغل الوادي المجاور. يستحم بمائه، ويأكل من خيراته، اشتغل أول الأمر، بتقسيط علب السردين وقطع الخبز، ولما لم يقصده الناس لاقتناء بضاعته، أخذ يلتهمها دفعة واحدة، وكأنه لم يتناول لقمة منذ شهور.. يبدو أن العنف روَّضه، وأحاله خشبة خاوية تغرق في صمتها المستديم.. لم يكن ينطق سوى بغمغمات:

- السوصوليكس
- أوهو ...

مبهمة كلماته وغير ذات معنى.. يتحدث كثيرا عن كوكب المريخ والألاعيب الممارسة من قبل إخوته.. وأخيرا، عفَتْ عنه أمُّه بعد أن تأكدت من تعقله النسبي.. أصبح يساعدها في الشاذة والفادة، وبات مثل الحمار يتجه حيث أمرته دون نقاش. لا يفارقها إطلاقا، يلازمها مثل ظلها ويطيعها حد الإذعان.. يحضر كل المناسبات، فرحا أو قرحا.

"السوصوليكس" يأكل بشراهة. يسمع الكلام ولا يعلق إلا بعينيه وحركات يديه، يسبق الأجواق أثناء حفلات الأعراس، ويعزف على كمانه بشكل ماهر... أصبح يحب هذه الآلة بجنون العشاق، إذ لا تفارقه! يدخن السجائر الرخيصة، بل يبلعها مثل قطع الخبز... يجيد صنع الكمان من علب الزيت الزنكية المرمية في الزبالة.

يضرب الأخماس في الأسداس، ويدفع عربته في السوق الأسبوعي، بحثا عن زاد الأنف والبطن.. رغم تقدمه في السن، ما يزال ينعم بسمات الشباب... يحتقره أهل سنه ومجايلوه.. ويصل أوج حمقه، لما يناديه أحدهم "بالسوصوليكس العرابي" أو يناديه بـ"مضاجع الحيوانات".. يلطم خديه، ويقذف الحجارة في الفراغ.. ولا يتكلم ...

"السوصوليكس" ابن تربة لا تضيع هويتها، غير أن السفر الزمني الموبوء ألقى به في حِجْر الموت البطيء: موت في الحياة الدنيا ثم موت ما بعده موت، ولا تدري نفس ماذا تصادف غدا!!!

4- اللعيبة السيط الليط

العسكري الذي ذهبت الحرب بلبه وأفقده هولُها رشدَه

كان رجلا غريب الأطوار، قوي البنية، دائما يحمل بين منكبيه العريضين عصا مسلحة بالمسامير، والويل لمن يناديه بـ"اللعيبة "، يقلب الدنيا، ويفسد كل ما يلفيه أمامه، ويعتدي على النساء والرجال، كبيرا وصغيرا، لا يسلم من شره أحد. ورغم مظهره الأنيق، حيث كان يحمل (مقججة) ويرتدي (كوستيما) رائعا، ويضع نظارتين، فقد كان عصبيا إلى حد لا يطاق، إذ غالبا، ما كان يستفيق باكرا، ثم يقف أمام باب السوق بتفرس الوجوه والملامح، وعلى المارة أن يحنوا رقابهم، ويضبطوا حركاتهم وسكناتهم، ومن ابتسم أو رفع رأسه، نال طعم زرواطة اللعيبة السيط الليط، وبعد أن ينتصف النهار وتمتلئ "الرحابي" بالباعة والمشترين، يعيد اللعيبة السلاح إلى مكانه، ثم يتوغل داخل السوق، ومما يثير الضحك أن الناس يفرغون له المسالك والممرات بسرعة، أحيانا، يصادف سيارة أو عربة، فلا يفسح لها المجال، وينتصب أمامها، في كبرياء، ثم يستل سلاحه ويضرب إطارها بعنف.

يهرب الركاب ويتركونه في صراعه مع عدوه الوهمي.

كان كثير الشك، عنيدا، يظل، أوقاتا طويلة، يقاتل السيارة/ العربة إلى أن يمل، ثم يغادرها بعد أن يتلفها. يأخذ من محفظته جريدة قديمة وينشر دعاياته وبياناته حول حرب محتملة ستقع في العالم، ذاكرا الأسباب والتفاصيل، بخبرة واسعة، زارعا الخوف والذعر في صفوف البدو بلغة واثقة. اللعيبة شحاذ متمرس، يأخذ المال بالقوة، يقف أمام

خيمة التجار، متأبطا هراوته، كأنما يطلب أتعاب حماقاته، وما على الضحية إلا أن يؤدي الثمن، تحاشيا لمصائبه المفترضة، إنه لا يطاق...

ذات مرة، سرق اللعيبة شاة وذبحها ثم تمتع بلحمها، وشرب دمها على مرأى ومسمع من راعيها! وإبان السوق الأسبوعي كان يهدم الخيام، ويطلق وثاق البهائم والدواب ويفزع الأطفال والنساء لإثارة الفوضى في السوق. كان الناس يهابونه لأنه ذو شهادات وكفاءات وتنويهات من طرف مصلحة الدفاع الفرنسية. كان يتحدث بلغة فرنسية ركيكة عن كيوم وهتلر ولاندوشين وديكول. تزوج، في آخر أيامه، بامرأة مجهولة الهوية (مجنونة أيضا)، واستوطنا كوخا بالسوق القديم. كان يقودها من يدها، طيلة الأسبوع، ويناديها "سوزان" إحالة على عشيقته القديمة بفرنسا. أحيانا كان يعنفها، فتظهر للناس سيئة الهيئة، حائلة اللون...

لم يكن يعرف أحدٌ أين يبيت اللعيبة، لكنه مرة، طاف جميع دروب وضواحي القرية، صارخا، كعادته، معلنا، في الناس، خبر قدوم حرب محتملة ستأتي على الأخضر واليابس، ولما تعب، قصد ضريح سيدي مسعود بن الحسين، بكى وشكا، ثم أحرق ثيابه وهراوته... وفي الصباح الموالي، لم يظهر له أثر، فيما كانت جموع الناس تشيع جثمان سوزانه الحمقاء، ويحملونها إلى المقبرة القريبة من الخلوة... رحل اللعيبة ومعه جبروته! ولم يعد، لكن، مع ذلك، ظل يحضر رعبه القلوب والأنفس، كلما وطأ الناس عتبة الطريق المؤدية إلى ضريح سيدي مسعود بن حسين أو السوق الأسبوعي.

5- الرداد:

يرهبّ الناس بفراسته ويعيش خارج العالم!

لما تشرق شمسُ الأصيل على الخميس (خميس الزمامرة)[28] يكون الرداد قد عبر الكثير من الدروب والأزقة بحذاء رديء؛ أو غالبا ما يعبر الشارع الرئيسي، وهو حاف بأرجل متعبة أدمتها الأحجار الناتئة بين حيّي "السلام" و"بام"، وربما استرق بعض الإيماءات خارج نطاق الزمن الليلي تحت سقف سماء عارية قرب عين الماء الرابضة بهدوء، بمحاذاة الطريق الذي يقصد "مشتراية الغربية"[29]... يبدو خارجا لتوه من سوق السمك أو الخضارين أو المطالين؛ وكأنما السماء وهبته ميسما خاصا: رأس أصلع تعلوه عروق دموية بارزة وتحفر جبينه أخاديد عميقة، وآثار ندوب قديمة، ترصّع صلعته حبيبات من الطل ويغمر وجهه تراب البارحة الذي بات يتوسده حَالِماً بعالمه الخاصّ... تميزه ضحكته الهستيرية التهكمية... يضع على رأسه طاقية تنحدر لتغطي مساحة كبيرة من جبينه الداكن... فتلمع عيناه البنيتان كنجمتين مطفأتين بالضباب؛ لكن بمتعة خاصة تتيح للرائي رؤية الوجه الآخر لسعادة الهستيريا العميقة التي تمرح في باحاتها روحه الغائمة، ترى البسمة تشع من فمه العريض الأدرد الذي خربه السوس، وقد تسمع قهقهته المجنونة تتردد عبر الأسواق والجدارات

---

[28]- قرية توجد على الحدود بين دكالة وعبدة، على بعد حوالي 80 كيلو مترا من مدينة الجديدة في اتجاه الجنوب.

[29]- مدينة مغربية قديمة هدمتها الحروب، ولم يبق منها الآن سوى أطلال متهالكة، وقد تخرج منها العديد من العلماء والأقطاب المشهورين.

الهرمة، فيخيل إليك أنك تسمع قعقعات رعد متفاوتة يمزق هويتها المضطربة برق خاطف...

بخطوات عشوائية، يتمايل عبر ساحة الشارع كالثمل بشرب الماحيا... مرة بعد مرة، يتوقف بفرامل قوية ويدور حول نفسه دورتين، كأنما يسائل العالم عنف اللحظة الساخنة.

ليس الرداد متسولا وليس أحمق لدى الكثيرين، لكن الشيء المؤكد هو أنه صريح حنون ظريف، لا يتعدى ولا يتجاوز حدوده... إنما يتكلم من غير وازع، ويطلق الكلام على عواهنه، تخاله دجالا لم يحترف حصد أرزاق العباد؛ كأنما طاقيته الساحرة تختزن العِرافة الثاقبة... يستمع الناس لكلامه ويتفاءلون به... قال ذات مرة لصديقي إسماعيل، وهو يحتسي قهوة الصباح الممزوجة بسيجارة أول النهار: "احذر! إنهم يطاردونك!"... جاء إلي إسماعيل على وجه السرعة، منزعجا بعينين جاحظتين، وهو يتمتم ويضغط على السيجارة بشفتين متيبستين:

- لقد أطلق عليَّ الرداد سهم فأله هذا الصباح... أسأل الله السلامة!

ووقعت لإسماعيل حكاية تأكد، من خلالها، ذاك المساء، أن للرداد فراسة قوية، وأن تخوف الناس من شر نبوءاته أمر مشروع...

الرداد ناقة بلهاء تطأ بقوائمها أفكار الورى وتصوراتهم... يدخن السجائر بشغف ويمتص من دخانها قدر ما تنفث المداخن، بصدر عار، يستقبل الريح الصرصر العاتية، وبجلد متشقق مزدوج، يستقبل

العواصف والأنواء... له عشق غريب للحيوانات الأليفة، ولها ميل غريب نحوه، تفهم حركاته؛ فتأتيه طائعة لتشاركه طعامه... يُضاحكها بهستيريا حتى تبدو نواجذه. ويقوم أحيانا ليراقصها تحت ضوء النجوم الساهرات... يتفحص وجوه المارة ويقرأ ملامحهم ساخرا قبل أن يطرح فرضيات فراسته المخبوءة... يقصد مقهى "ميلانو" أو مقهى "النيل" ليطلب قهوته مجانا، يكتفي بالجلوس ثم يبدأ سلسلة ضحكاته المجنونة فيأتيه النادل بـ"قهوة حليب"، غاضبا يضع له فنجانه الصباحي، ويغادر تاركا للرداد سلة سباب:

- اشرب حنجر وأعطينا التيساع!

لم يكن عنيفا ولا مخيفا لكنه مزعج... يكره الناس رؤيته صباحا لأنهم يتطيرون منه، إذ يطردونه من مقاهيهم، ومن شرفات منازلهم، فلا يجد ملاذا سوى العراء والجداران المهجورة، ولا يلفي غير التربة الندية وسادة لليل ناصب لا تغادر كواكبه...

يدندن الرداد باستمرار في المماشي، ويقهقه على الأرصفة المتجاورة دون ملل كأنما يخطو في عالم يتجدد كل صباح ..

6- العماري...

هيكل آدمي مصبوغ بطلاء الأوساخ والقمل وجسد منهك بالعري والحشيش والجنس...

لن تسأل أحدا عن "العماري"، تكفيك زيارة خاطفة لضريح سيدي مسعود بن الحسين لتميز ملامحه وسحناته، ينادونه بـ"بوكاشة" نسبة إلى الطرحة المتسخة التي يلتحف بها جسده صباحا ومساء، صيفا وشتاء... مسامُّ جسده انغلقت بكثرة ما تعلق بها من العفونات والشحوم، تبدو سحناته غامضة باهتة متوارية خلف طلاء مزيت يشبه شحوم المحركات... وتتخلل لحيته المتناثرة الشعر أعواد وقطع أوراق وبقايا سجائر، لا يفارق أنفه دخان التبغ، ولا تبارحه علبة السيليسيون حتى أن هذه الرائحة أصبحت ميسمه الخاص، مدمن حتى النخاع على استنشاقها... يحتاج إلى الكثير من العلب ليمرر النهار... السيلسيون بنزينه المميز الذي لا يحتاج معه إلى قوت... أحرق الكثير من الأعصاب، ليصير كما هو عليه الآن، لا يدري أحد متى يستيقظ ولا متى ينام، إلا أنه يتجلى في كثير من الأوقات، بجانب شجرة أو سور، يضاجع الأرض في هيام كبير... يُعرف في القرية بميسم الشذوذ الجنسي، حيث يتجول في الشوارع مكشوف العورة، طالقا العنان لسوطه الحيواني يتجول بين أعشابه الكثيفة... ضُبط، في حالات كثيرة، يضاجع الحيوانات في السوق الأسبوعي بعد أن يأتيها بالأعشاب والحشائش... يتلذذ بعنف خاص قبل أن يستسلم لتمدد هادئ... وغالبا ما يشتبك في صراع مع النساء، إذ يستغل مواطن الزحام ليسترق لمسة من مؤخراتهن والمواطن الحساسة في أجسادهن... ولكثرة ما افتضح أمره، أصبح يتتبعه الرجال وتحتاط منه النساء...

يقصد الضريح، كل سبت، أثناء قيام طقوس "الحضرة" لينال نصيبه من الجذبة، لكنه يصطدم بعنف المصابين بالصرع الذين ينهالون عليه باللكم حتى تسيل دماؤه؛ فتلوثَ أجورَ الضريح؛ وهو يبكي مثل طفل صغير ضاع من أمه لحظة زحام سارق...

"العماري" مدخن من العيار الثقيل وأكّال حشيش ماهر، ونشّاق سكير معربد لا تفارقه الثمالة... يمد خدَّه للمارة كي يحصل على نقود تضمن له دفء لحظة رامشة من لذة البطن أو الفرج... عُرِفَ بصحبته لعاهرة، كلما أتاها تلبي رغباته. تمنحه أحيانا مؤخرتها بالكريدي (الطلق)... ولِما تلومها صويحباتها تتذرع بكون العماري هو الوحيد الذي يلبي رغباتها، تقول إن العماري آدم فحل... تقضي منه إربها وتطرده عاريا يلهث ككلب... يقصد متعبا أي جدار أو شجرة ليرتمي تحت الظل دون حراك، فيما قضيبه العاري يتأرجح منتصبا في الهواء عاريا يقطر ريحه مثل أير حمار...

"العماري" من سلالة شجرة شريفة تمتد أغصانها إلى جذور المشرق؛ شجرة ما يزال ظلها ساريا في كثير من القبائل اسمها "أولاد أعمارة"، لكن قيلولة زمن مُرّ جعلته يثور على كل الأعراف، ويكسر كل الحدود ويتنكر لكل القيم التي ينهل منها لب المجتمع... تخلى عن كل أمجاد الجدود ليسبح في حوض عكر مطوق بالموت والوعثاء والعفونة والآثام... حياته جحيم تفور نتانته، ويسيل لهيبه على وجهه ندوبا لا تحصى، ونارا يحسُّها وحده، ولربما يتلذذ بوهجها صامتا كأنما هو خشبة ممددة...

7- كرط بلكدية:

وُلِدَ مقهورا وعاش مذعورا ومات مهجورا

سمَّاه أهله محمد، لكن الناس تبين لهم أنه بعد نضجه بكثير، لا يرقى إلى مستوى تحمل أوزار هذا الاسم النبوي فلقبوه بـ"كرط" نسبة إلى أحد ألقاب السيد "الحمار". ولصقت به، من بعد، هذا اللقب الساخر كما يلتصق به جلده؛ ولازمه مثل ظله، لكثرة تداوله بين الناس وشيوعه بين الأجيال التي عقبت مجايليه. لم يكن مؤذيا لأحد؛ وإن اشتدت قواه ومتُن عودُه... فقد كان خادما مطيعا لكل من يمنحه أجرته في إرضاء معدته وتلبية رغباتها!

كان من غرائبه أنه يحب "باداز"[30] ويشترطه كوجبة إبان اشتغاله مع أي كان! يبلع منها قصعة بمفرده، ولما ينتهي، يقوس ظهره نحو الخلف ويعزف بمؤخرته موسيقى غريبة عن طريق الضراط... يعزفها أمام انفجار الضحك من أفواه المتحلقين حوله... وغالبا ما كان يستغل الناس قوته وسذاجته لإنجاز أعمالهم الشاقة مثل حفر المطافي والمطامر وخزائن الحبوب... يعمل كثيرا ولا يطلب إلا القليل... لا يستريح كأنما جسده من حديد!

كان يدوس الشوك والحجر الناتئ وأوراق الصبار بأرجل حافية دون أن يتألم! يُشْرِع فاه للريح ويعرِّي رأسه للشائعات؛ ويتغطى نهارا بشمس الصيف؛ ويتدثر ليلا بالنجوم. يرعى قمله وبرغوثه ويعيد ما سقط منه إلى جلده، وهو يضحك قائلا:

30- أكلة مغربية شهيرة تشبه الكسكس غير أن تصنع من طحين الذرة بدل القمح.

كلُّ ما قسَّم لك الخالق!

ينام حيث اتفق مثل البهائم والأنعام... كان يحب لعبة "هيري"... يدخل دائرتها بفرح طفولي ليقفز في كل النواحي، يستقبل الضربات بصمود ويصدها كثور كسُور عظيم. وحتى حينما يهزم أحدهم، فإنه لو تنازل له عن دوره ينوب عنه.

ولد بـ"نوالة"[31] من أبوين فقيرين تتوزعهما النوبات والشدائد، ورضع ثدي أم هزيلة فارقت أباه بعد مدة، وتركته لأبيه الذي ودَّعه وعانق أحضان امرأة أخرى بعيدا عن ذلك المكان، وعاش طفولته بئيسا محروما من كل الأشياء الجميلة التي يحسها الأطفال وينعمون بها في كنف ذويهم، ولم يجد "كرط" الطفل اليد الرحيمة التي تحنو عليه...

في قريته، لا يولي الناس أهمية سوى للبطن والفرج... عاش ذليلا بين أقرانه، وحينما كان الطفل/ محمد ينهزم في "الرونضة" يحكم عليه الخصم بأن يكون حماره فيقله مسافة معينة... ويطالبه بالنهيق... ومنها لقبوه بـ"كرط" نسبة إلى سلوكه الذي ينسلخ على الحمار... أو الحمارة... فقد شاع أنهم مارسوا عليه الجنس من الخلف حتى لقب بالخنثى... يجمع أعقاب السجائر، ويلفها في ورق السُّكر ثم يدخنها بجنون... يدخن أكثر مما يتكلم... تراه غائرا في صمته، مقرفصا في الجانب الأيمن للطريق الرملي، مشبكا يديه حول صدره، محدقا في الأشياء برؤى غامضة لا يسعها المجال... غارق في خلوته. وحتى إذا

---

[31]- مسكن تقليدي قديم كان يصنع من التبن والقصب، اندثر الآن مع هيمنة البناء الاسمنتي.

وقفتَ بجانبه يغرقك في بحر الصمت... حتى ولو شتمته لن يجيبك إلا بضحكة مزلزلة يعقبها الصمت المديد لا يشكو عناءه لأحد... وحتى حينما يمرض يظل صامدا في وجه الألم، دون أنين، برأس عارية، كأنه يعارك الأيام القاتمة، حليق مثل حجرة صماء تلمع، خاصة في الليل، حينما يسقط فوقه الرذاذ...

قطن أول الأمر "نوالة" بجوار المسجد ب"دوار لبيادرة" غير أن"المحضرة" أحرقوها بسبة أن قملها الذائع الصيت وصل إلى ألواحهم وأمتعتهم فنهبها. لم يحتجّ ولم يُعلِّقْ. لكنه صمَّم على أن يُكْمل حياته في المقبرة بضريح "سيدي عيَّاد السبع"، حيث لا يمكن أن يضايقه الغرباء...

عاش بلا زوجة ولا أبناء، ومات وحيدا غريبا بعيدا عن المقبرة، وبالضبط، داخل كهف عتيق، بعيد عن الساكنة... ولم تُكتشف جثته إلا بعد أن طالت فداحة رائحتها البلاد والعباد...

مات، وفي نفسه شيء من الصَّمت... غيَّبه موتُه فلم يُبْكِ أحدا ولم يُسْقط دمعةً ولا أحزن قلباً، ولم تمدحه نائحةٌ، ولا شقَّتْ خدَّها، من أجله، بكرٌ... أحبَّ "الكدية"[32] فسُمي بها وعشقَها حتى مات بين غربتها...

---

[32]- التلة أو الأرض المرتفعة.

-8- "الدوتش الفارة"

جرحه بحجم الأرض وحياته موت مستحيل

شاسع في انطفائه حد الغروب، لا يشاطره في تدفق المرارة حجما سوى الغدير المجاور للرثمة الوحيدة بالبلد، حتى في أيام الأعياد لا يبدو إلا كريح غريبة في واضحة النهار أمام الحان الوحيد بالقرية، لا يسأل الناس إلا لماما... هجر الدنيا وطلق متاعها منذ الصغر. لقد تعود أن يلقى من الحياة دوما الأسوأ. فما إن بدأ يشتم عبق الحياة حتى فطن إلى متاعب الزمن المرّ التي تنتظره، إذ فقد تَاجَا حياته (والديه) وهو ما يزال لم يتذوق طعم طفولته بعد، وشب بين كافِلِيه وضيعا، يتيما، بين خيمات ورجالات الجوار، يعبث أبدا بأنامله في الأرض، ويرخي لحية سَوّدَها الغبارُ والخشاشُ... يهيم على وجهه في الأرض بلا هوادة محنيّ الرقبة لا يبالي بسقم... عند ما يكون جالسا قرب الحانة تخاله يفكر في مصير كل الناس، نظره ممتد كالهبوب لا يكدر صفوه غير اقتراب ثلة من المدمنين على القمار، حيث يجفل بسرعة الريح ويختفي قبل أن تستقر أعينهم على شبحه الذي يطارده الغبار... سريعا يعدو، غير مبالٍ بالأحجار الناتئة والحفر العميقة والسفوح، حافيا يعبر الأشياء بعناد وبأرجل متينة صلبة مثل المهراس... لا يظلم أحدا لكن حساسيته المفرطة تجر عليه المتاعب وتكسر عوده أمام الآخرين الذين ينهالون عليه بالسبّ والشتم، إذ يكفي أن تناديه "الدوتش الفارة" ليغرق في بحر الغضب والسخط، خفيفا كالظل يهرول كناقة عشواء...

يختفي أحيانا، إذ يسافر إلى أماكن قريبة أو بعيدة... يعمل حيثما اتفق دون أن يسأل عن الأجر... يكفيه أن تحضر له زاد البطن والأنف ليخرب كل الأرض. الدوتش الفارة قوي البنية ومحني الظهر بالكاد، قرب الرقبة، مديد القامة، تقاسيم وجهه حادة كالسيف لا يناله السرور لا من خلف ظهره ولا من بين يديه... يبدو شاحبا كالشمعة الوحيدة المعلقة في الركن القصي من ضريح أعزل لا يمت بصلة للحياة... تنكر له أهله، فهام على وجهه في البسيطة يستعير من وهج الشمس دفئا، ومن فجاج الريح يتخذ اعتدال حرارته الفائقة...

"الدوتش الفارة" رجلٌ نبت في الخلاء، لا أهل ولا مستقر... يقُدُّ الزمن بردته المثقوبة من الخلف دون أن يلتفت... حتى حينما تستفزه، ينسحب مستعطفا... يسمي كلّ باسمه ولا يسميه أحد باسمه ، لذاكرته قوة التداعي، ولنظراته الثاقبة سحر الفرز والتصنيف، يستطيع معرفة شجرة الصبي العائلية من خلال ملامحه وسماته الفيزيولوجية... ويتعدى ذلك، إلى حفظ أحداث القبيلة ومواقف شخوصها المنصرمين...

من غرائب "الدوتش الفارة" كونه يرفض النساء، ويمارس الجنس بأشكال من الشذوذ، وإذا أنت كلمته عن الزواج يغضب ويتمرد، ما عدا حديثه المقتضب عن معشوقته القديمة؛ بنت الجيران التي كانت تمنحه أقاصي جسدها بكرم شاسع ليتفنن في تدليكه... ويمكنه أن يصفه (جسدها) بكل تفصيل وإطناب! وبوسعه أيضا، أن يطيل في تعداد ما يشعر به من لذة وعنف في شهواته معها... يحكي أنها كانت لما تخرج أمها، تستدعيه ليمشط شعرها ويدلك عضلات

فخذيها وساقيها وحتى بطنها... ويحمرّ وجهه، حينما يذكر أنها مرة كشفت له مؤخرتها الفاتنة، وقالت له:

- هيا، نقّ مؤخرتي من شوك الكرموس الهندي العالق بها!

"الدوتش الفارة" عميق كالجب، جامح كالتفاصيل المفرطة، حار كقهوة الصباح، غائب ظاهر مثل "ثعلب زفزاف"[33]، غامض كالهامش الذي لا تسعه رموش الورى... التيه آفاقه البعيدة، والحزن ميسمه الموروث، ظله النسيان، والموت القادم، فاكهة يراها كل صباح... الغد الموغل في الغموض والماضي المنكفئ على نفسه في نظره سيان.

9-"عيوش الخادم"

ذات القطط السبع...

لأمر ما كانت القطط تفد عليها مثل الجراد...

كانت غير ذات مسكن ولا أهل لها... لكنها تظهر في المدينة مثل الشبح، تصادفها حيثما تذهب، كأنما هي صور متعددة لوجه واحد... تمشي الهوينى... فما الذي سيجعلها تسرع؟ مفلطحة كالشارع لا تزول البسمة عن محياها الذميم، ذات ملابس رثة خَرَّبها الوسخ، وحال لونها، حتى غدت مثل الحجر الذي ينصب عليه القدر

---

[33]- عنوان رواية للروائي المغربي الراحل محمد زفزاف.

في البوادي... امرأة لا تستطيع تحديد سنها أبدا، كأنها جاءت من العصور البائدة!

تحبّ الحيوانات كثيرا، خاصة القطط والكلاب، تمنح حضنها العريض لسبع قطط متقاربة السن، وتستبيح جسدها ساحة لشغبهم... تحنو عليهم كتعويض عن غياب أبناء، وتمرر يدها على فروهم النافر... تكدح طيلة النهار، لتوفر لهم مؤونتهم... تظل القطط تتبعها بين الشوارع والطرقات مثل أم رؤوم... تتخذ من ضريح "مولاي عبد الله أمغار"[34] سكنا دائما... ويحكي ذوو العلم بالبركات أنها عاشرت ضريح الولي الصالح "مسعود بن الحسين"[35] مدة من الزمان... فوقف عليها الواقف في المنام، وأمرها بأن ترحل إلى حارس البحر الأمغاري، فثمة الحل لعقدتها، والشفاء لدائها... ليست مفزعة، بالعكس تجدها محبوبة لدى الناس، حنونة على الأطفال، وبالجملة، ليست مؤذية تماما... أيام المهرجان الخاص بموسم مولاي عبد الله أمغار يستغلها (الحلايقية) والحكواتيون للتهريج، نظرا لسذاجتها ومظهرها المضحك/ المحزن، مقابل دريهمات قليلة، تحبُّ لعبة الملاكمة كثيرا، وتمارسها ضد الرجال في (الحلقة)... أحيانا، يثير الصغار المشاكسون غيضها فترميمهم بالحجارة! ترغي وتزبد إذا نادوها (عايشة الكحلة) أو (عايشة طرطح)...

---

[34]- قطب وولي صالح يزار لحد الساعة، يوجد جنوب مدينة الجديدة بحوالي 10 كيلومترات، يقام به مهرجان فرجوي وديني سنوي، تعرف هذه القرية باسمها القديم في تاريخ التصوف "مدينة تيط".

[35]- قطب وولي صالح يوجد ضريحه بقلب دكالة بمنطقة تدعى أولاد افرج وهو من المارستانات الشعبية لتداوي المس والصرع.

تجوب أسوار "تيط" وباحاتها وتزور كل الأسواق بحثا عن قطعة خبز حاف وبعض الدسم... يبدو أنها لا تحمل همّا سوى هم بطنها والهررة التي تقتفي رائحتها وظلها طيلة النهار... تسير بلا مطامح لأنها في نظر الناس مجرد هبلاء (هبيلة) أو (بوحاطية) تعبُر الأزقة والشوارع الإسفلتية بأرجل حافية تضيم النفس وتبكي الجوارح... تحب من الحلقة[36] بشكل ملفت، وتجد ذاتها في المشاركة في إضحاك الناس وإسعاد لحظاتهم... ولو وجدتْ من يستغل مواهبها المسرحية لأدت أدوارا ممتعة، خاصة في المسرح الكوميدي... لكن مجرى الزمن لم يترك للدراويش حتى الحُشاشة من ثمل الحياة الضّاجة...

تسري عيُّوش باكرا، يتعثر بها المصلُّون أمام باب المسجد قبيل صلاة الفجر، وهي تدعو للناس بصوت تخالطه غنة الصباح وتتبع خطاهم بعينين يغالبهما النوم، فيما يداها لا تفتران من مداعبة القطط السبع ذوي الألوان المختلفة، وتقديم قطع الخبز لهم... تضحك تارة، وتبكي أخرى كطفل مقهور. ولما يغافلها الوسن، تنام حيث اتّفق، وأحيانا، يسمع السكان نُواحَها في الأزقة في الهزيع الأخير من الليل.

هكذا تُفَضّلُ "عيُّوش" أن تعاشر الحيوانات بدل الناس، ربما لأنها تتخذها فلسفة في الحياة... وربما لأنها وجدت فيها الإخلاص والوفاء اللذين لم تجدهما في الإنسان...

---

[36]- فن فرجوي يتواجد بكثرة في ساحة جامع الفنا بمراكش الشهيرة.

10- ابنُ الشيخ:

حُكم عليه بأن لا يغادر أسوار المدينة العتيقة

هل تتصورون كيف يمكن لإنسان أن يعيش طول عمره بين سورين أو أربعة أسوار أو مكان محصور بحواجز؟؟؟ تخيلوا معي! لا تندهشوا! مجرد تصور لا غير! ربما أن الموت أرحم بكثير! ولكن ماذا لو كان ذاك قدرا محتوما؟ كان ذاك حظ إنسان يدعى "ابن الشيخ" الذي كتب عليه أن يحيى سجينا قسريا بين أسوار مدينة تدعى "تيط" و"حُكْمِ" الولي الصالح مولاي عبد الله أمغار...

عاش طيلة عمره، لا يفكر في الخروج من بين حيطانها وأبراجها البرتغالية والفينيقية، بل لا يحلم حتى... هل تتخيلون ما الذي يحدث له، لم يقف في طريقه أحد، ولم يعترض طريقه حاجز سلطة، ولم يضعه مريد في خلوة، بل كان محاصرا نفسيا. كان لا يستطيع مغادرة الأسوار، وإلا أُصيب بالصرع والغيبوبة، أغلبهم يرشحون السبب الأول لذلك، احتمال تواجد جني يحل فيه لحظة مغادرة الباب القبلي أو الباب الخلفي.

لم يثبت أن عني بالاعتداء على أحد أو مطاردة أحد أو أثار مشاكل بالمدينة، بل كان يحب أسرته وأهله. وكانوا يتبنون احتياجاته ومصاريفه. بذلوا الكثير من الجهد كي يعيدوه إلى ما كان عليه، أو بالأحرى إلى الحالة العادية لكن دون جدوى...

وُجد أكثر من مرة خارج الأسوار مرميا فاقدا للوعي دون حراك... فإذا ما أعيد إلى داخل المدينة عاد إليه رشده واستفاق من

صرعه. ليس سهلا أن يجد المرء نفسه محكوما بسوار فولاذي يحجب عنه الحياة، مهما تكن صلابته قد ينشق لو كان ظاهرا للعيان، حتى ولو كان سور طروادة. فاليد الآدمية الناقمة لن يعوزها هدمه! لكن كيف والحاجز الذي يطوق حياة "ابن الشيخ" وهميٌّ، روحيٌّ، لا يراه حتى هو نفسه، فكيف سيساعده الآخرون؟ ذهب به أهله إلى "بويا عمر" و"برشيد" وكل الأولياء دون جدوى!

زار عرافاتٍ، واستعمل البخور، واستحم بماء سبع أمواج؛ لكن الحالة ظلت على حالها... لم يكن يجد ذاته سوى بين هاته الأسوار الطاعنة في القدم... لا يؤنسه إلا مذياعه (النمرة ثمانية) وقصبة الصيد التي يتسلى بها ويطحن الوقت إلى جانب البحر بشاطئه الصخري الحابل بقنفذ البحر ذي الشوك السامّ... تمر عليه الدقيقة مثل عام. حفظ الأزقة والدروب عن ظهر قلب وتمنى لو أنه افتقد ذاكرته ليعيد تأسيسها من جديد بدون حروب ولا خسارات...

لم يفكر "ابن الشيخ" في المرأة لأنه يجدها هناك، حيث يشتهي قرب (المحكن[37])؛ حيث تتحرر الفتيات، تماما، من كل ملابسهن الداخلية بأجساد شهية، ثم يسبحن في ماء (المحكن) المذكور طردا لنحس العزوبة وتيمنا بقدوم عرسان هائمين... كل ذلك، كان يحدث أمام عيني، ابن الشيخ الذي، وإن كان غمه يشغله عن باقي ملذات الحياة، فإنه، غالبا ما كان يحسّ بأن أجساد النساء العاريات توقظ في أعضائه السفلى أشياء غريبة لم يستشعرها من ذي قبل... تهيُّج،

[37]- مكان أسطوري يوجد بمدينة تيط الصوفية القديمة القابعة على الأطلسي، حيث تحج الفتيات العوانس لطرد نحس سوء الحظ، واستجلابا لعريس محتمل.

وتصلب، وانتفاخ، وتنمل يسري عبر العود الفقري، وأنفاس تتهدج تدريجيا مثل عاصفة تتشكل...

"ابن الشيخ" كان جنونه صامتا، ظريفا لا يؤدي أحدا، ولا يزعج الناس، يحاور نفسه، ويقضي السويعات بعيدا عن جلبة الناس واشتباكهم مع مضارب الحياة، وكانت تلك فلسفته في الحياة.

"ابن الشيخ" شخص هادئ لا يعكر صفوه حتى النزال المسلح الصاخب، ولا يفكر في غير همومه كأنما رؤاه لا تبارح ما بين الرجلين، أحيانا، يتراءى لك وهو يعد الحصى والحجر دون كلل، يجلس متكئا على الجدار، محنيا رأسه الصغير المعفر بالغبار لا يلوي على شيء، ولا يبالي بأسئلة العابرين للرصيف. بين يديه، عود يخربش الأرض اليابسة... تقرأ خطوطه فلا تعطيك إلا الفراغ المستحيل، ولا تفهم ما توحي به أصلا أو فصلا.

"ابن الشيخ" يحبُّ اللحم ويأكله، لكنه لا يستطيع رؤيته نيئا؛ فإذا ما حدث أن رآه، تأتيه نوبة الصرع العنيدة ولا تفارقه إلا وقد أسقطت قواه... كانت طريقته في اقتناء اللحم، أن يأتي بالقفة ويناولها للأقربين من الجزارين لكي يضعوا فيها قدرا من اللحم وهكذا، حتى إذا ما بلغ منزله كان يتحاشى أن تلتقي عيناه بكتل اللحم قبل أن يطزج...

ولأمر ما، عند ما يطبخ اللحم ويطزج، كان يأكل بشراهة البقر والإبل دون أن يطيل المضغ...

كان الناس يختلفون في أمره: بعضهم يقول "مسكون الله يستر" وبعضهم يقول:"سكنته أم الصبيان بسبب اللحم"، ولسنا ندري رأيه فيما يعانيه...

كم كان يحب أن يخرج من سجنه ما بين السورين، غير أن الأجل قرر النفاذ؛ قبل أن يتحقق حلمه... كان يجرب أن يخرج من قفصه كل عام مرة رغم العناء الذي يلحقه...

فهل كان ذلك سرّاً من أسرار الأسوار؟ أم أن عشق "تيط" لابن الشيخ حفَّزَ الأسوار على أن تأسره؟

مجرد تساؤل، والعلم لله قاهر الخلق بالموت والفناء...

11- الطرفحية:

مقدِّسة الأسفل... معلِّقَةُ الرغبات الذكورية...

هذه المرأة تنعتها كل نساء القبيلة بـ"لالة" ويلجأن إليها آجلا أم عاجلا في أمر من أمورهن الكثيرة، فهي عليمة بأسرار الرجال وتبدلاتهم، خبيرة بخفايا أحوالهم، عارفة بتقلبات النساء ومكائدهن... مثل جنية قاهرة... تخبرُ العرافة والسّحر، شديدة قلة الحياء، مفرطة في الشجارات والنزاعات...

تسبُّ الرجال ولا تهاب أحدا، شديدة البأس، سريعة القلق... كم دفنت من رجال...! وكم من نساء رمَّلت وطلقت...! حتى الكلاب تهاب شرها... شيطانة من النوع الرفيع!

"الطرفحية" هذه؛ امرأة، رغم كل شيء، جميلة فاتنة لكل من رآها، ولها طرق هائلة للإيقاع بالذكور. لها زوج قهرته وخرَّبت فحولته، فأصبح معطلا لا يحرك ساكنا... ليطلق لها العنان بعد ما روضته وابتلعت ثروته، لتفعل، بعد ذلك، ما تشاء دون أن يبعث، في نفسه، نزقُها واستهتارُها، شيئاً من رجولته... ذاع صيتها في القبيلة، بعد أن ركبت الرجال، وقهرت النساء...!

للطرفحية جسد يفيض بالأنوثة التي لم يستطع زوجها الهزيل إشباعها، فجنحت إلى اقتناء اللذات المحرمة، فكانت تستضيف الرجال الفحول، متسترة بسبب ما، ثم تنصبُ لهم الحمّام وتعطرهمُ وتكرمهم بالرفيسة والدجاج البلدي، لتعرض عليهم الخدمة، وكانت لها جملة شهيرة ترددها على كل من يمر بهذا المقام:

- بَرِّدْ ناري إن كنت فحلا... إنها تشتعل في كلّ جسدي!

ثم تدخله إلى مقصورتها الخاصة (القبة)...! وما أدراك ما القبة...! لا يدخلها إلا ذوي الرماح الطاعنة والسيوف المغلولة... والويل لمن رفض طلبات "الطرفحية"!

كانت تقيم حفلا كل نهاية شهر بمنزلها على نفقتها. وتستضيف أصدقاءها المميزين الذين يطفئون النار المستعرة بداخلها. إنها امرأة لا تتكرر... امرأة تكتنز بداخلها ألف امرأة أخرى... كل الشباب الذين غسلوا فيها شهوتهم، وجدوا أنفسهم مكبلين ليلة الدخلة بلا أسلحة، وما عاد لهم، من فكاك، سوى أن يستغيثوا بالطرفحية التي تعرف وحدها المفتاح السري، فتفرض شروطها القاسية: أن تأخذ من

العروسة ليلتها الأولى، وأن تحل محلها ليلة العرس، وأن تؤتى بكبش وألف درهم...!

كانت تقول: - "دخول الحمام ما هو مثل خروجه!".

تفكر "الطرفحية" ، بشكل هجاسي، في الأسفل... لذلك، فكل أفكارها تحمل نسمة الجنس... وكان الرجال يخافون، على نسائهم، من مرافقتها؛ مخافة أن تحرّضهن على الفعل الحرام...! كانت أيضا تحب الحمير الذكور وتكرمهم وتجزل لهم العطاء... تعتبر الحمار فحلا عظيما وتتفرج على ممارسته الجنسية، قبل أن تهب مشتعلة إلى النفار الظريف صاحب الخلقة العظيمة ليطفئ لهيبها بسوطه المحطّم للرقم القياسي...!

داهمتْها الشيخوخةُ، وفتكتْ بها الفاقة، فقطنتْ ضريحا، واحترفت التسوّل والدعارة مع من هبَّ ودب... قبل أن يُفاجِئها الموتُ في الخلاء...

12- فراينكو:

أسطورة البحث عن كأس العالم!

ترتبط بعض القرى الصغيرة مثل "بني يخلف"[38] بأسماء رجالات بصموا أثرهم في جسد تاريخها، كما يمكن لها أن ترتبط بأسماء رجال مضوا ولا يُعرف عنهم ملتهمو الأسفار والكتب شيئا، بل حتى في

---

[38]- مركز قروي فلاحي يوجد على الطريق الوطنية رقم 1، قريبا من مدينة خميس الزمامرة.

الخطاب الشفهي الجمعي، يُعدّون نكرة. فليس منا من يعرف من هو "بنو يخلف" هذا أو "أعجيل" أو "أفرج"[39]... وليس غريبا أن تنهض قامة الدجالين والحماق في مثل مناطق صغرى كهذه، وأن تنتشر أسماؤهم مثل النار في الهشيم... وربما، بسبب توغلهم هذا في الذاكرة والأشياء، قد ينالون موقعا لا يناله حتى صانعو التاريخ!

في مثل هاته المناطق الصغرى على الأقل، هكذا ينتشر صيت "فراينكو"، الرجل النحيف ذو الصلعة البراقة، يحلق رأسه بمفرده، وبطريقة بهلوانية، ثم يدهنها بالزيت البلدي فتلمع في حلكة ليل بني يخلف مثل جمرة متقدة. ومع ذلك فهي تشكل محج تبرك النساء، وإن كانت، في بياض النهار، تصير هدفا تتصيده حجارة الصغار المتهورين! ليس هناك أعداء لفراينكو المزَوَّر غير الأطفال الذين يطاردونه حتى في لحظات قضاء الحاجة... لكن انتقامه عسير، فهو يرد الصَّاع صاعين، وله ذاكرة قوية... مثل ذاكرة فيل...

"فرينكو" مدخن بارع، لكنه لا يدخن سوى السجائر، ولا تسمح له نفسه بتدخين أعقابها مثل باقي من عُرِفَ من حماق المنطقة. كان أيضا يجمع دريهمات يقدمها لمن يمنحه نشوقا من الكيف أو الحشيش. خدوم يسقط بين يدي من يجزلون له العطاء. وغالبا ما يستخدمه البعض في الانتقام من أعدائهم. سريع التنفيذ، وحاد المزاج يقدر على الطعن بالموسى، وشديد البأس في رمي الحجارة، يصيب أهدافه من الرمية الأولى، ربما اكتسب ذلك، من خلال تمرسه على

[39]- أسماء تكنى بها قبائل، والغالب أنهم رجال كانوا يقودون القبائل ويصنعون بطولاتها في زمن تاريخي عرف بالمغرب، بعصر السيب !

استقبال ضربات الأطفال؛ وكذا تسديد القصف المضاد. من شيمه الخطرة؛ أنه إذا قهره الجوع والرغبة في التدخين، يقصد أي منزل أو أي شخص. فإذا ما امتنع عن تلبية حاجاته ورغباته، وضُنَّ عنه بالعطاء، اختلط لديه الضيم بالألم؛ فينقم على أهل المنازل، ويصوِّب اتجاههم غضبه، فينهال عليهم بقذائف الحجر مثل منجنيق هادر! ولا يكف، عن ذلك، إلا إذا لبوا له ما طلب منهم! يخالط الكبار والصغار ويجوب الطرقات بأرجل حافية وأسماء بالية. وببنية ضعيفة، يستقبل، بكرم سخي، جيوش القمل وقوافل البراغيث التي تنط فوق جلده المتفحم بجير العرق ولون الأوساخ، وبأظافر ممدودة، ملأى بالقاذورات! مما يجعله يحك إهابه الميت بلا توقف...!

ينتاب فراينكو، في أحايين كثيرة، هزّات عصبية قوية مثل لسع الكهرباء، فيشرد ككلب تتلوه الكلاب المسعورة، ويطارده الصيادون، يصيح صيحاتٍ تُذَوِّب الحجر. ينتف شعره، يلطم خده، يسب أهل البلد، ويلعن نفسه... تبا لنهار يتبعه ليل بهيم، يسكن الروح قبل البلاد تبا... تبا...تبا..

هكذا كان يصرخ فراينكو المسكين... في هستيريا.

13- الجعـيدي:

"صعـصع" الذي قهر رجال القبيلة!

رغم أنه عاش أيام "السيبة"! أيام كانت كل قبيلة تتسامى فيها عن الأخرى... والويل لمن زجت به الظروف ومر على حدود قبيلة غير قبيلته، فإنه يأكل ما قُدّر أن يأكله شارد القطيع.

ورغم أنه لم يكن يحمل معه سوى محفظته الجلدية، وملامحه الصارمة، ونظراته الثاقبة، وقوته الحيوانية... فإنه كان يهاب ويفزع ويشعل حرائق الخوف في نفوس الناس نظرا لشراسته وقبح هيئته...

حَكَى لي بعضُ المسنين أنه كان فارع الطول؛ عملاقا... عظيم الخلقة.. تنفر منه حتى الحيوانات... أسنانه تفيض عن شفتيه وشاربه بحجم بلغة... وكان يترك شعرا خرافيا ينهمر على ظهره، ويستر منكبيه دون انتظام... يرتدي السروال القندريسي والقشابة القصيرة تاركا غابة صدره تلاعب الريح... وجْنتاه منتفختان ممتلئتان بالهواء وبطنه فزاعة. أما القدمان فلا قدَّ لهما في أحذية الأرض. لذا كان يذهب عند الخراز ليصنع له شبشبا من جلد عجلاته الخاصة!

يمشي "الجعيدي" فيتبعه الغبار من خلفه. ويعرفه الناس من أثر قدميه فيرتعبون قائلين: "من هنا مر الجعيدي". وقد اشتهر بطريقة في التعذيب لا يقوى عليها غيره، إذ كان يمنطق الرجل من عنقه بساعده ويتركه يموت ببطء، حتى إذا ما بلغ الموت الحلقوم أطلق سراحه. وتركه مغميا عليه قبل أن يغادر المكان...

وصادفت الفترة الذي عاش فيها الجعيدي أيام كرب وجوع وجفاف... فكان يكسب قوته بالقوة دون أن يهاب العواقب... شديد البأس، لا تطيقه النساء على الخصوص... فكل من سبق له أن تزوج بهن لم يتجاوز عمر بقائهن لديه سوى الأسبوع الأول، نظرا لفظاظته وضخامة ذيله، حيث كان مدفعه ليلة الدخلة يسبب لهن الكثير من الإيذاء، ويجعلهن ينزفن الكثير من الدم عوض الثلاث قطرات. وقد عزفت أغلبيتهن عن الزواج لأن أثره ظل بليغا في حرورهن التي ما فتئت توجعهن نتيجة الالتهابات والجروح التي خلفها أثر عبور جهازه التناسلي البهيمي وسوطه الذائع الصيت البليغ الأثر والضرر في آن واحد...

وهذا ما يجعلنا نتصور أن هذا الأحمق لو بقي حيا إلى الآن، لجعلت منه قنوات الخلاعة واحدا من نجوم هوليود وأبطال الإيروتيكا العالمية. تَراهن، ذات مرة، مع مجموعة من الفلاحين، فأكل أربع كيلوغرامات من الإسفنج، وبرمة من الحريرة، وسطل ماء وأنهى وجبته بما توفر من البيض المسلوق... وقال معاتبا إياهم:

- (أنا الآن فقط سددت الجوع ولم أشبع بعد! فهل من مزيد؟؟)

فهربوا، بعد أن خافوا من أن يكمل بأحدهم وجبته...

14- لحسن بيخا:

يشرب الماء المغلى ويأكل الثعابين

هذا الرجل النحيف، الباهت الملامح، المهملُ لمنظره، العاشق للتراب والطمي، أسماله ملوثة بالغبار والوحل، مدمن حتى العظم على شرب الكحول واللاّنكول! طريقته في السكر غريبة: لما تشتد به الثمالة، يأخذ شفرة من نوع مينورا (رازوار) ثم ينهال على جسده النحيل طعنا بشكل متواز والدم يتفصد بغزارة! يتحلق حوله الناس يطلبون اللطيف والستر. يوم الأحد، يستيقظ باكرا كعادته، يقصد سوق الأحد الأسبوعي بعد ليلة صاخبة في بهو ضريح "سيدي مسعود بن الحسين"، يحمل ما حَضَّره البارحة من عجين، يضع ثلاث حجرات حول حفرة صغيرة. يضرم فيها النار ثم يجعل فوقها مقلاة قديمة ويصب الزيت حتى إذا أصبح مغليا، يرمي فيه الإسفنجات، ويحركها بقضيب حديدي أفسده الصدأ. وعندما تنضج، يقدمها للمارة نساء ورجالا.

لم يكن حسن بيخا مزعجا، لكن منظره كان سيئا للغاية، خاصة حينما يتناول جرعات الجينكا، حيث تتهدل شفتاه، وتبزغ عيناه المحمرتان، ويغطي البصاق نصفه الأعلى العاري: الناس يتهافتون على إسفنجه معتقدين أنه يحوي البركة والشفاء...

"بيخا" هذا، كانت له طريقة عفوية للإيقاع بضحاياه من النساء، حيث يستغل خروج الرجال إلى العمل، ليبدأ طوافه بالأزقة والدروب فاتحا نافذة نصفه السفلي، مخرجا ثعبانه البهيمي. تقف النساء على

أبواب وعتبات الدور متأوهات، ناصبات شباكهن للإيقاع به في لذة فراش، ولأنه كان مقبولا لدى الناس، فلم يرعب النساءَ أن يدخلنه إلى بيوتهن، وإذا تمنعت عنه واحدة منهن، فإنه يتعمد القيام بعملية التبول قربها ليثيرها أكثر، فلقبه أهل البلد (البانضي) بعد أن افتضح أمره، دلالة على مكره!

وقد اشتهر بممارسة الجنس على المختلات عقليا ممن يزرن الولي الصالح (مسعود بن حسين) وخلواته، وقد أخصب بطون العديدات منهن. ويكون يوم السبت عرسه الخاص بقبة الولي، حيث يشكل حلقة ضخمة، يتجمع الزوار حوله، فيشرب مقراش الماء المغَلَّى، ويبصق به على وجوه الناس الذين يمسحون وجوههم قائلين "الله ينفعنا ببركتك آ الشريف"...

عاريا نصفه العلوي، يصول ويجول بين حزمة الثعابين والعقارب والأفاعي؛ يقبلها ويمتص ألسنتها ثم يلفُّها حول خصره وعنقه. ولما يغضبه الناس، حين يفرون لما يطلب الفاتحة نقدا، ينهال على أضخم ثعبان فيأكله حيا، والسم والدم يسيلان من فمه المثير للاشمئزاز، يتقيأ الكثير من الناس، فيما يطلب البعض اللطيف! وغالبا ما تنتهي مثل هذه الأعراس بطقوس الدم والهلع، حيث يغرز "بيخا" السكاكين والمديات والمسامير في وجهه وأطراف جسده غير عابئ بالألم!

ترتعش فرائص الناس وتلين قلوبهم، فيما يسقط "بيخا" مغميا عليه... دراهم معدودات تسقط على جسده المضرج في الدماء، كل هذه الأشياء عجلت بنهايته... ففي إحدى الصباحات، وُجد الرجلُ

ميتا قرب جدار الضريح، تتجمع حوله جحافل الذباب والناموس، ولولا ألطاف الله لأكلته عصابة الكلاب الليلية التي تتجول في الحي!

مات "بيخا" وفي نفسه شيء من الخبل...

15- "بزط":

بوعو الذي لا يقهر

لا أحد يستطيع بدقة أن يعرف سيرة خروجه عن طريق الأغلبية. والسؤال الذي طرح نفسه بإلحاح هو:

- من المجنون؟ هل الـ"نحن" أم هذا الذي نسميه "مجنونا"؟

لا أحد– تأكيدا– يستطيع معرفة الجواب...!

سهر "بزط" الليالي من أجل أن يكون فلاحا عظيما، لكن ضيق ذات الجيب وذات اليد جعله يميل إلى "التخماس"[40]... ومن كثرة ما تحمّل الأعباء وناء بثقل السفر بين الطرقات... افتقد صوابه... وساح في الأسواق، بحثا عن سبل الرزق... غليظ... سمين... يمشي بقدمين حافيتين... لا تؤذيه الحجارة ولا الطرقات الوعرة والمسالك المتعرجة... أحيانا؛ كان يصنع من جلده الذي صار مثل الخشب حذاء أو ولاعة أو أي شيء يعوض آليات أخرى ضرورية للحياة... كان يتهرب من جموع الناس، ويميل إلى العزلة ... يسب الناس، ويخاصم العالم، ولا يعبأ بالقيم...!

---

[40]- عقد بين عامل وصاحب الأرض، بموجبه يشتغل هذا الفلاح في الأرض، طيلة السنة، ويقوم بكل العمليات الزراعية انطلاقا من الحرث، وانتهاء بجمع الغلال والمحاصيل، مقابل خُمُسَ المنتوج.

لم يتزوج في حياته أبدا...

يحكى أنه كان يحمل معه هراوة منتقاة ليحارب خصوما وهميين مثلما كان يفعل الدون كيشوط قبله بقرون... وحتى في السوق الأسبوعي، لا يسلم من غضبه من قُدِّر له لمسه أو الاحتكاك به... إذ يهوي بعصاه على الجسد الغافل الذي لا يستيقظ إلا على صعقة الضربة الموجعة على كتفه أو خاصرته فينحني تحت تأثير الألم. وقد يسقط ليكون فريسة رفسة أخرى أو ضربة موالية أشد قوّة...! تستيقظ الضحية... تنهض ولا تشكو، فيما يعود "بزط" إلى غيه القديم، حاملا كيسا ينتقي مستلزماته وأشياءه، فيجهز عليها دون مقابل، فإن تعنت صاحب البضاعة، كان نصيبه من الهراوة وافرا...

في آخر أيامه، أحس بألم في رجليه، فانتقى لنفسه دواء غريبا، اتخذ قدرا من الأملاح المعدنية من نوع الفوسفوريات التي تستعمل في تسميد التربة... ذوبها في الماء، ثم وضع رجليه في القدر... وكانت النتيجة أن أصيب بمرض عضال في رجليه، انتهى به إلى استئصالهما بالمستشفى... وكانت المضاعفات أن غادر الدنيا بسبب حمقه! فذهب مثلا على أن من ادعى القوة يموت ضعيفا...

وما زال كل من مر بقبره أو ببقايا منزله، يستشعر الهلع ذاته، وينتفض جسمه خوفا من بطش "بزط" وحمقه... وكأنه ما يزال حيا...!

16-" الحاضري"

لعنة مجتمعية ربانية على محترفي السياسة

لا أحد ينعته بالمجنون... ولا أنا أستطيع أن أصنفه ضمن هذه الخانة... غير أنه يصف نفسه بأكبر المجانين على وجه الأرض... يقر بما لا يدع مجالا للشك أن حالة جنونه أشد تدهورا من الحالات السابقة برمتها... مجنون حقا بكثرة تعلقه بالأشياء والمواقف... والشيء إذا زاد على حده انقلب إلى ضده... مجنون في حبه: قيل بأنه يستطيع، أن يحب، أن يشَهِّر بعشقه ومعشوقته، يعلنه أمام الملأ وكل وسائل الإعلام وبمكبرات الصوت... مجنون في علاقاته مع الناس... مجنون في إدمانه على القراءة والسهر والخمر... وكل الأشياء... إذا دخل مجالا لن يفارقه حتى يمله... في مقهى الإنترنيت، كان ينسى نفسه وكل العالم، ويكون آخر من يودع الصالة... إنه يقرأ الجرائد يوميا... كل الجرائد دون أن يقتني واحدة... تجده دائما في مشادة مع الكتبي أو بائع الجرائد... يقرأ ويدخن... يقرأ ويضحك... يقرأ ويناقش لوحده... واقفا لا حراك...!

وفي ليل القرية، ينشغل بنقاش الأخبار وطرح التأويلات التي لا تصدر إلا من عالم مستقبلي محنك... أحيانا، تتكهن بكون الجن من يطرح عليه تلك التأويلات والتعليقات، ويساعده في ذاك، خبرته الطويلة في مجال السياسة. له مفهوم خاص للنضال... وينزّه نفسه عن السقوط في شركه... شارك في الوقفات والمسيرات والاحتجاجات والندوات... سمع واستمع. أقنع وأقتنع... ولما لم يجد نفسه في إحدى

هذه القنوات والأساليب، ابتدع لنفسه نهجا خاصا في الحياة سياسيا واجتماعيا... ألا وهو البحث عن الغنائم والزرود... وإذكاء نار الصراعات وتحريض الناس لإسقاط أعدائه... ولما لا تحقّق النخب المسيرة رغباته، يؤلّب ضدها الرأي العام... ويستنفر ضدها كل الحواشي... في الأسواق والبوادي... بين النساء والرجال والفتيات والسكارى... والحماق... سُوسٌ يعرف كيف ينخر الأغلبية ويفتتها لتصبح رمادا...

تجده في كل الجمعيات والاجتماعات... يبيع وجهه في كل الأسواق ولا يمجد إلا نفسه... شديد الحيل يجيد نصب الفخاخ... ولأن خصومه يستهينون به، لا يدرون متى تأتيهم الصفعة (العود لي تحتقره قد يعميك...) يدخلُ إلى البلدة غريب الأحزاب وجديدها، ويصنع لها مقرات ونقابات وقواعد... ثم يولي لها ظهره... ويرحل بحثا عن أوكار أخرى وولائم جديدة... "أبو شعيب الحاضري" هدمته السياسة، واغتصبه الزمن السياسي، فما تمخض عن ذلك سوى التمرد... وذهب التدخين بوسامته، وإن كان ما يزال شابا... شديد البأس لمن عاداه، يطعن دون أن يترك أثرا... يقول الناس عنه: إنه شيطان سخره الله ليطمس شوكة كل حزب نسي الناس وانشغل بنفسه... يرهق كل العارضين والخاطبين والمبدعين بأسئلته المستفزة... ويتجاوز الخط الأحمر... فما يذهب منهم أحد بمزاج صاف... ولا أحد يستطيع أن ينسى الحاضري ووقاحته... جريء حد القرف، بليغ في سلاطته على الرموز والقادة لا يلين له جانب... مجادل صنديد لا يزمه الخصوم... يبحث عن الساسة الجدد بالبلاد، وكل من حل بها

من نقابيين أو فقهاء أو مشعوذين... يُزيّن لهم ما يزين... ويشوّه لهم صورة من يكره، ويحذرهم شر من يتطير منهم... ولا يبغي غير إفساد الأمزجة، وتعكير الصور، وتشويش الوضع لينعم بلذة التفرج على الصراعات والحروب الباردة... يُذكي نار الفتن و(للحروب غداة اللقاء مسعار)... والعجيب في الحاضري هذا، أنه يعلم كل صغيرة وكبيرة من تاريخ الأحزاب وندواتها وموائدها المستديرة واجتماعاتها الخاصة ومؤتمراتِها... وصِفَات رموزها وأخلاقياتهم. الظاهرة والمستترة.. وقد يتفوق، في هذا، على الكثير من المنتمين ويهزمهم... له ذاكرة معطاء، ولسان لجوج...

يصبح "الحاضري" عملة نادرة إبان الحملات الانتخابية... ينتقل في الحملة نفسها بين الكثير من الألوان حتى أنه استنفذ تاريخه ووقف تائها على شط الحيرة... يشكل "الحاضري" نموذجا لجيل سرقته التيارات المتلاطمة، بعدما مصّت لبه، ورمته أجلافا بلا هوية ولا أفق... تلك الطاحونة التي لم يسلم منها إلا (من رضي الله عنه والوالدان).. وقانا الله شرها...!

17- شوطح

قاهر المجانين وصاحب "المعكسين"

اشتهر اسمه بين القبائل؛ وذاع حمقه، وتناقلت بطولاته الألسن جيلا بعد جيل، سُمي "بوكرن" لأنه كان يترك سالفا من شعره ينبت في قمة رأسه الذي يشبه "الكدية "على شاكلة "شَقِيف[41]"، متوسط القامة، ممتلئ البنية، قويا على المصارعة والقتال، لا يرتدي سوى السروال "القندريسي" والدراعية. وحيث إن قامته وهيئته القويتين تثيران الهلع في نفوس الناس، فإنه لم يكن يتوانى عن توشيح مشيته ببعض الإضافات ليصبح مستفزا أكثر. دائما يحمل كيس "شمرتل[42]" على ظهره وهراوة مسلحة بالمسامير، وسيفا حادا في صنعه حداد القبيلة. حليق الوجه والرأس لم يترك على رأسه سوى تلك الجديلة الطويلة التي كانت تشبه ذيل حمار يتأهب للقفز فوق ظهر أتناه!

يظل يذرع الطرقات، ويسلب الناس بالقوة كل ما يشتهيه من مأكل وملبس، إلا أنه لم يكن يحب النساء وأقسم ألا يتزوج بنت حواء! وقد أرجع البعض هذا إلى عشقه الكبير وافتتانه الشاذ برجل خنثى متأنث، حيث كان يتردد عليه في المساءات الباردة.

ويحكي أهل الدوار أن تلك الليلة تظل تصدر عن بيت ذلك الخنثى أصوات تشبه أصوات عراك البهائم، وصهيل الخيول من كثرة اشتداد الرغبات واضطرامها. إذ كان يعصر "بوكرن" ذلك الرجل الشاذ،

41- بطل السلسلة الدرامية السورية "الكواسر".

42- نوع من الخيش.

ويضاجعه بعنف الحمير. وكثيرا ما كان يصدر عن البيت نداء يطلب الغوث! فإذا حج الملبّون لهذا النداء، يجدون الرجل الشاذ عاريا تسيل مؤخرته بالدم وتشهد على فداحة الكارثة أو يجدون "بوكرن" يعالج جهازه التناسلي الضخم، فيشهر فيهم هراوته المسننة، فيعودون أدراجهم خائبين لاعنين الشيطان الرجيم، عاضين أصابعهم من الندم! والواقع أنه لم تكن ترهبهم عصاه المسلحة، وإنما كان يدهشهم حجم سوطه الحماري الذائع الصيت! كان إذا جلس ليقضي حاجته في الخلاء يفرش لجهازه العشب والكلأ لكي لا يعفّر بالتراب!

وكان هناك، في سوق من أسواق الشاوية، عبد زنجي يُرهب الناس، ويسطو على حوائجهم، ويعتدي على زوجاتهم ويستبيح ممتلكاتهم اسمه "الجعيدي"، فبلغت هذا الأخيرَ أخبارُ "بوكرن"، فهب إليه من ساعته، باحثا عنه، وخاف الناس على "بوكرن"، وعلموا أن سوق "بوقوبع"[43] سيكون حلبة لصراع مميت يكون ضحيته أحد الطرفين! وسمع العبد الزنجي عن قوة "بوكرن" واعتداد الناس به، فاغتاظ وتهيج للنزال. وكانت رحبة "الحلايقية"[44] حلبة لصراع عنيف، حيث تحلق الناس حائرين في دائرة كبيرة، وقف في أحد طرفيها "بوكرن" متطلعا إلى العبد؛ وانتصب في الطرف الآخر العبد بعينين يتطاير منهما الشرر... وقفا برهة، ثم اهتاجا وانطلقا للمصارعة مثل ثورين التقيا، فهبت زوبعة الغبار! وما هي سوى لحظات حتى انفلت

43- سوق من الأسواق الأسبوعية المتواجدة في سهل الشاوية الفسيح.

44- رحبة بالسوق مخصصة لعرض الفرجة، حيث يحج كثير من الفنانين والفلكلوريين من أجل عرض موادهم الفرجوية والهزلية والوعظية.

البطل "بوكرن" من قبضة العبد، وشده من أحد طرفيه ورفعه إلى الأعلى قبل أن يضرب به الأرض بكل ما يملك من قوة، فانغرس في الرمل ذليلا يتجرع خيبته! فصفق الناس بحرارة لسقوط العبد، ورفعوا "بوكرن" على الأكتاف، وطافوا به السوق، قبل أن يكرموه ويحسنوا إليه بحفل كبير احتضنه ضريح الولي"سيدي مسعود بن الحسين". وظل "بوكرن" بقوته وجسارته أسطورة زمانه لدى قبائل دكالة، رغم أن الموت أخفى جسده الضخم الهائل البنية.

18-"اعنيبة":

حكم عليه رجالُ القبيلة بحمل جيفة نعجة والطواف بها في الأزقة والدروب

عُرف "اعنيبة" برجل الليل الذي لا يشق له غبار، لأنه كان يظل حبيس خيمته في النهار ولا يخرج إلا في حلكة الظلام الليلي؛ إذ يتسلل في جنح الظلام، ليعبر خارج حدود القبيلة، بحثا عما يدفئ نهاره الغافي.

كان سارقا محترفا، ماكرا، لا تنبتُ طريقُ عبوره، بعده، عشبا. يظل يخطط نهارا لما يفترسه بالليل، ولا يخطئ هدفه. مصمم خطير، لم يسبق لأحد أن اكتشف سر ثروته، مع أنه لا يشتغل ولا يمارس نشاطا تجاريا، وينام الضحى، فلم يكن ينفتح على الآخرين أو يدخلهم إلى منزله. لذلك ظل غامضا بالنسبة إليهم، حتى أتى ذلك اليوم الذي فجر المسكوت عنه، وكشف القناع عن وجه "اعنيبة" السيئ.

فقد حدث أن خارت قواه، ولم يعد قادرا على السفر ليلا لممارسة القرصنة المباشرة في أماكن قصية. وبما أنه كان قد ألف حياة النعيم بدون جهد، فإنه لم يستطع أن يعيش على بسيط الطعام، فعزم على أن ينفذ بداية جديدة ويحبك خطة جديدة للعمل: أن يسرق أهل القبيلة دون أن يستشعره أحد، حيث كان يقود أثره إلى وجهات بعيدة ليموّه متتبعي الخطى!

وكان، في القبيلة، رجل يضرب خط الرمل الزناتي، محنك في قراءة طلاسمه، نجحت عمليات القرصنة الأولى لـ"اعنيبة"، واحتار أهل البلد لأنه لم يسبق أن مستهم أية يد مارقة، وعهدوا البلد آمنا مطمئنا، وبعد أن عجزوا عن تقصي أثر الفاعل، لجؤوا إلى ضارب خط الرمل الذي قادته الطلاسم إلى منزل "اعنيبة". وفي منزل اعنيبة بدأت الحكاية: طوّق أهلُ البلد منزله، وهبُّوا ليحاكموه محاكمة جماعية لم يعترف من خلالها بما يشفي فضولهم...

احتار ضارب خط الرمل، وبدأ يعيد حساباته التي قادته إلى الزريبة التي مُوِّهت بالتبن، ووُضع فوق التبن "التين المجفف" في وسطها توجد مطمورة محكمة الإغلاق، وداخل المطمورة وضع اعنيبة النعجة المذبوحة؛ درءا للشبهات ومخافة أن يفتضح أمره!

أركبوه النعجة الجيفة وراحوا يتجولون به في البلد، ويأمرونه بأن يصرخ في الناس قائلا:

-"اسمعوا يا عباد الله يرحكمكم الله، أنا سارق نعجة فلان ابن فلان "وهذا جزاء من يسرق، فاحذروا يا عباد الله".

وبعد هذا المصير الذي لقيه "اعنيبة" عانى كثيرا من شدة الأوجاع والأمراض. وكان لمرارة انكشاف سره، أثر كبير في إحباطه وإحساسه بالذل، فأضرب عن الطعام ليموت جوعا وعطشا.

19- "ديد الحيوان":

بهلوان يرهب الصغار والكبار

لم يكن هذا الشخص فاقدا لصوابه، فقد قيل إنه كان متزوجا وله أولاد كثر، وعندما كان ينطلق من منزله الصغير من حي "سيدي مسعود بن الحسين" نحو البراري المجاورة حافي الأرجل، عاري الرأس، كان يحمل أبناءه الصغار المتقاربي السن فوق رأسه وكتفيه مثل النمل، ويستعملهم في استدرار بهم الصدقات والعطايا حبوبا ونقدا وملابس وأي شيء...

ديد الحيوان له قد ربعة القوام ، قصير؛ وممتلئ الجسد، وزوجته مثله، عند ما يتعاركان يفزعان كل الدرب ويرعبانه. يتراشقان بالحجارة، ويتبادلان السباب الساقط. وأحيانا يستدعي الأمر تدخل الدرك والقوات المساعدة... وقد تنبه الصغار والمارة إلى نقطة ضعفه، فبمجرد سماعه لكلمة (ديد الحيوان) يجن جنونه ويقيم القيامة، ويتحول إلى حيوان جامح ترتعب من هجومه حتى الأرض: ترتج تحته، وتطلب اللطيف وكأن زلزالا حل بها... يرمي الحجارة... يقلب البضائع في السوق، يلطم النساء، يرغي ويزبد، ولا يسلم من حمقه حتى الكبار والعجزة!

ومع مرور الوقت، انتقلت العدوى إلى أبنائه، فتحولوا إلى عصابة تفتك بما حولها، إن هي مُسَّتْ بكلمة (ديد الحيوان)... الكثير من الناس يضحكهم أمره، ويسلّيهم ما يفعله من حماقات. لذا، فهم لا يعكفون عن إزعاجه وإثارة سخطه، وأحيانا، يوجهون صراخهم إلى منزله كي يهب إليهم ويطاردهم... ومع توالي الأيام، ألف الناس وجه الديد وشغبه، وأصبحوا يساعدونه على لقمة العيش وتآلفوا مع نمطه وحمقه، وبدأوا يتخذونه مسليا لمجامعهم وجلساتهم... وهو نفسه، بدأ يعتاد الأمر مع كثرة ما مورس عليه هذا الاسم حتى التصق به وأصبح ميسمه الخاص... ولم يعد يُرعب الناس إلا لماما... وحتى حينما اختفى، ذات مساء، هو وأسرته، بقي في الذاكرة الجمعية طيفه المترنح وجنونه القصير مثل خمرة في الرأس وقت الصباح.

20-" بلّي بولكلاب"

محنة البحث الدائم عن ودٍّ الكلاب

عادةً، ما يدعوه أهل البلد ب"بلي ماكو" لكثرة ما ينطق بصوت مسموع كلمة "بلي"، وقيل: عن سبب اختباله هو أنه فقد، بشكل مفاجئ، صديقه المبجل الكلب "بَلّي" الذي كان يلازمه مثل ظله ويغدق عليه الوفاء.

أصابته صعقة تشبه الموت لما وجد كلبه الرائع صريعا ذات صباح، بفعل افتراسه من طرف كلاب الحي الضالة قرب قمامة السوق الأسبوعي...

حدث ذلك، قبل ثلاثين سنة خلتْ، وكان "بَلّي" هذا الرجل، ما يزال شابا غضا، متصعلكا، لا يهمه سوى البحث عن حاجيات البطن والأنف... قيل: كان راعي غنم يستأنس بجروه الذي شبّ، وصار ضخماً مثل الشبل الغابوي. ولما أصبح الحبيب والصديق، غدرتْ به كلاب الدرب السائبة. وترك "ماكو" رعي قطيع أغنامه، إذ فضل التسكع بعقل شارد وثياب ملوثة، ريق، ومخاط ودموع تهمي... وفم لا يمل من الهدير: "بلّي، بلّي.. بلّي.." حتى لُقّب بـ"بلي أبو الكلاب".. والغريب في الأمر أن بلي هذا، لا يسكن ولا يطمئن إلا لمجموعة الكلاب، ينام حيث تنام، ويشاركها المأكل والمشرب... وهي الأخرى لا ترتاح إلا له، وتهيج على أعدائه، إن حرّضَها... يبيت ساهرا، متقد العينين على عوائها ونباحها... ربما كان يتخذه موسيقى دائمة بما أنها لا تؤذيه...

ومع مرور الزمن، أصبح يصطاد هاته الكلاب لفائدة الناس لاستغلالها في حراسة الغنم والحقول والبيوت مقابل بعض الخدمات: "نقود- لباس- مأكولات...". وكانت هذه الكلاب تطيع "بلي" وتستجيب لرغباته، وبعضها لا يروَّضُ إلا على يده. وحتى بعد غيابه، تظل الكلاب تتوق لرؤيته. وإذا ما تحقق لها ذلك، تنساب الدموع من عينيها علامة على الوفاء...

كان "بلي أبو الكلاب" قوي البنية، شديد البأس على من يعتدي عليه، لذا كان الناس يتحاشونه، ولا يثيرون أعصابه، كما يفعلون مع المجانين الآخرين، شديد العداء لمن يستفزه. وكانت له ذاكرة قوية جدا ولا يرد فعله إلا بعد أن ينسى الخصم الحادثة: وكان

له ضحايا كثر... ومن هنا بدأت مشاكله... حيث كثر الناقمون عليه وذوو الثأر... تحيَّنَ أحدُهم الفرصةَ، ذات ليلة، وفتك ب"بلي" وأرداه مغميا عليه. لم يفق إلا بعد أيام من مرور الحادثة!

منذ ذلك الحين، لم يكسب "بلي" قواه، وتحولت هيبته إلى مجرد منهزم يجوب الطرقات، بحثا عمن يمد له قوت يومه... حتى قوته الضاربة التي كانت تفد عليه من أصدقائه الكلاب، تفككت، بفعل عدم رضوخهم لطاعته، ونفورهم منه... هل قدره، وهو الذي جاء إلى هذا العالم نتيجة انفلات ماء نزوة عابرة لابن قائد معمر أيام الاستعمار إلى رحم فتاة عاشقة، أن يعيش مؤديا ثمن ما اقترفتْه يدا والده من ذنوب وخطايا في حق المستضعفين، فكان يجوب الشوارع حافيا، باكيا، شاكيا، وينظر إلى السماء، كأنما يردد:

- ربنا أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟؟"

21- (لمحفحف):

يذبح النعاج الشاردة ويشويها... يدخن الكيف ويشرب الكحول...

الواقع أنه لم يكن أحمقَ... في بداياته، كان شابا وسيما تنجذب إلى سحره أغلب نساء القبيلة، اشتغل عسكريا وتسلق المراتب وحصد ميزات كثيرة، فانقلبت خصاله رأسا على عقب. إذ غاب الحياء عن محياه؛ واسْتُبْدِلَ بنظرات حاقدة ملتهبة يصدر عنها الترقب والغدر والجنس...

مع مرور الأيام، أصبح عنيفا مع أهله ووالديه، خصوصا لما عرضوا عليه فكرة الزواج... شكّل فريقا من العزاب، وشيَّد بيتا بعيدا في أطراف القرية؛ أصبح يتردد عليه كل نهاية أسبوع، مجهزا بالحشيش والبيرة والكيف، ويستدعي إليه أصدقاء السوء، يقضون هناك ليلة حمراء، وبعد أن يفقدوا صوابهم تحت تأثير المخدرات تشتد الشهوة بـ"لمحفحف" ويتهيج للأنثى؛ فيقصد أي منزل قريب لتكون ضحيته أية أنثى يجدها في طريقه، فيشبع منها غريزته الحيوانية، ويتركها وزوجها غارقين في بحر الذل يتجرعان خيبتهما؛ لأنهما لن يستطيعا البوح بذلك، بسبب اشتغال "لمحفحف" في المخزن. وكان في وهم أهل القبيلة وقتذاك؛ أن كل من يعمل موظفا لدى الدولة، يمكنه أن يفعل ما يريد دون أن يحاسبه أحد.

وأمام تمادي "لمحفحف" في أعماله الشنيعة هاته، دبَّر أهل القبيلة فخّا له، ليتخلصوا من بطشه، إذ كمنوا له حتى ثمل وأجهزوا عليه، فبتروا أطرافه وكْووْا بالنار جهازَه التناسلي، ثم تركوه وفروا بعد أن أقاموا فيه الحد... وبعد أن صحا من غفوته، وجد نفسه في المستشفى مبتور الأعضاء؛ فاقدا لفحولته التي كانت مصدر قوته!

بكي لمحفحف بصوت عال... صاح... فَدْفَدَ كطير أسير، لكن حركته كانت سجينة، مشلولة! تجرع خيبته وساح، على عقبيه، في أرض الله الواسعة، أحمق مثل كل الحماق راضيا بالتسول والنوم في القمامة، وأكل الجيف، متأبطا سيفه الحاد. لعله يخاف أن يهُبّ إليه أهل القبيلة، فينزعوا منه الحياة، بعد أن انتزعوا فحولته.

أدمن "المحفحف" شرب الكحول لكي ينسى الذي حدث، ويدخن الكيف بشراهة، ليستطيع، تقبل مصيره الذليل... ويشرب الحشيش وحتى (المرض الأكحل) ليصعد، عبر الوهم، إلى مدن يرى فيها نفسه حاملة لمجده القيم؛ وليستعيد صوابه ورشده اللذين افتقدهما أمام طغيان عماء اللذة والشهوة والمال، مما دفعه إلى الاستهتار بذمم الناس وأعراضهم وحرماتهم، ووطء القيم الإنسانية التي تنظم سلوكات البشر! وهذه القيم لم تسلم من بطش "لمحفحف" حتى هو مبتور الأطراف، إذ كم مرة يسلب امرأة حاجاتها تحت غطاء الحمق، وكم مرة ذبح شارد القطيع وشواه بالأعواد أمام عيني راعيه، متوعدا إياه بسيف بتار يتأبطه...

إن الناس يصيبهم الذعر أحيانا كثيرة؛ حينما يلمحون آلالات الحادة الفاتكة التي يحملها هؤلاء الحمّاق في واضحة النهار؛ خصوصا عندما يتذكرون أن مجنونا مثل هذا، يتجول أمام البشر دون رقيب (حتى الرقيب الداخلي غير متوفر) يمكن أن يتحول إلى صاعقة بشرية... وقانا الله وإياكم شر العباد!

22- "ساط الرعد"

زلزال في الأمعاء يقصف الخارجَ بالنتانة

"ساط الرعد" رجل بعينيه ورجليه، شَرِه حد الجشع، حسود ونمام، غليظ البطن والمؤخرة، عاشق للشحوم والزرود بالكسكس، يأكل قصعة لوحده، يفرح لموت جيرانه كي يشبع بطنه دون أن يفكر

في أنه هو الآخر سيزور القبر لا محالة، يحسب نفسه شاطرا، يبيع القرد ويضحك عمن اشتراه، يجلجل بصوته الأجش، وينكّت ويثرثر في المآتم، ولا يحضر الأفراح، لأنه بخيل ويخاف أن يحمل إلى المحتفي هدية أو "غرامة"، عريض المنكبين، هائل الخلقة من فرط الأكل والشرب، لكنه مسالم حد الجُبن، بطنه هي التي تسيِّره، ورغباته البطنية العصبية التي تجعله يبيع وجهه مقابل أن يقتل شبح الجوع...

إلى حد كتابة هذه الأسطر، يبدو الأمر هينا لا حماقة فيه، لكن الأمرّ والأدهى، هو عند ما ينتهي "ساط الرعد" من فلسفة الأكل الحرة... فعند ما تشبع البطن تقول للرأس: "غن!"، لكن "ساط الرعد" هذا لا يغني بالطريقة المعهودة: إذ يقفل فمه، وينحني إلى الأمام مقوسا عجيزته إلى الخلف، ثم يطلق العنان لمدفعه البدين كي يطلق أصوات ضراطه المزعج؛ بحيث إنه يستطيع أن يفعل ذلك متى يشاء ولمدة طويلة، عازفا بصوت ضراطه أي أغنية يشاء، والناس متحلقون حوله ناعتين إياه بكلام ساخر وقح (مبتهجين، فرحين، مصفقين...) وهو في كل ذلك، لا يعبأ بما يقولون؛ كأنما يجد لذته في ذلك، تنبعث الرائحة الكريهة من حوله كأنما هو مصرف الواد الحار... إذا تنفس، يهرب الناس من حوله ويلعنون سلالته؛ وهو يضحك، ويضحك بصوت كالرعد، وينفث خلفه سمه الزعاف الذي يصيب بالحساسية كل من قُدِّرَ له أن يشتمم بعض نتانته...

وكان الأطفال الصغار يتتبعونه في الشوارع وينادونه بكلمات نابية، طالبين منه أن يغني لهم "الشاليني" بمؤخرته، فينحني كالمعتاد، ويطلق العنان لرعده البائس الحزين النتن... والأطفال يغنون ويضحكون!

ولم ينقطع "ساط الرعد" عن هذه العادة إلا بعد أن كَمِن له أربعة أشخاص ذوو بنية قوية في مسلك غابوي واغتصبوه بالقوة، وأطلقوا سراحه، بعد أن مارسوا عليه الجنس، بشكل شاذ، متشفين في اعتدائه على الناس وتلويثه للجو... بعد ذلك، هدأ رعده، ولم يعد يفتن الناس بضراطه... وكلما طلب منه الصغار أن يغني لهم يجيبهم:

- (لا يا أبنائي، إنهم أغلقوا لي الصارية "الغيطة").

لقد تسلط على "ساط الرعد" جنون في الذهن؛ وجنون في البطن! ومع ذلك لم يفتك به سوى العنف والشذوذ؛ ولم يهَلْ عليه التراب والنسيان سوى موت محققٍ.

23- "حـــمار الـــرمـى":
وهـــمُ البحـــثِ عـــــن البركة!

منذ أن كُنا صغارا؛ عهدناه بسمرة الأرض، وطول الجبل الفارع. لا يبتسم. وحتى إذا فعل تخال ضحكته قعقعة رعد مجلجلة، يرعبك حتى حينما يبتسم. يخيف به الكبار الصغار! ويقولون لهم: "سيأتيكم بوعو"...

يتحرك في الليل؛ فتتحرك أطياف شتى على الحيطان والأسوار. سُمي ب"حمار الرمى"، لأن الرمى، وهم شيوخ القبيلة، كانوا يعاقبونه بحمل "البرذعة" والتجوال بها أمام الملأ، قائلا بصوته الصداح:

-"أنا مذنب أنا مخطئ، هذا حالك ومالك"

تبني الخيام، ويحجُّ ناس القبائل من كل فج عميق، ليأخذوا البركة من الشيوخ الآتين من بعيد، كل منزل أوخيمة تُطَالب بإحضار قصعة كسكس... تنصب الولائم وينادي "حمار الرمى" بصوت صدَّاح يهز كلَّ جنبات القبيلة:

- "تعال يا من به جوع... تعال لتأكل من طعام الله".

يخترق صوته البراري المجاورة، فيهبّ الناس مثل الريح الهائم، مقتفين آثار رنات صوته القعقاع. وعند ما تأتي وجباتُ ووصلاتُ المواد المعروضة أمام شيخ الرمى ورجاله، يستفتح حمار الرمى العرض برقصة جنائزية يسميها "التبوريدة"، يتحلق حوله الجمع، ويوسّعون له المجال، يتحرك مثل جن شاهرا هراوته المزخرفة قائلا: هاوا هاو والخيل... دكوه... دكوه آ العونات"

ويختتم رقصته الفلكلورية بمحاكاة مشهد فارس يفرغ بندقيته في الهواء. وبفم كبير يفرقع شفتيه:

- "تبخ... تبخ..."

يصفق الحضور، ويشعر "حمار الرمى" بالزهو أمام رضا الناس، ورضا الشيخ... يجلس معتدا بنفسه إلى جوار شيخ الرمى، ووجهه ينبض بشرا وحبورا، ظنا منه أنه قد جنى الكثير من البركات، خاصّة، عند ما يدعو له الجمع، ويَبُخُّ فوق رأسه شيخ الرمي البركات...

فقدَ الكثير من صوابه مع تقدم السن، لم يكن له من يرعاه، لا ابن ولا زوجة... عاش هائما طوال عمره... تزوج، لكن لم يدم ذلك

طويلا. فسرعان ما ودعته زوجته فارّة، لتتركه وحيدا في مفترق الطرق بين الحياة والموت...

وظل هكذا مدّة... يحضر الزرود ويتجول في الأسواق حتى فاجأته المنية في العراء... وكان يوصي الناس بأن يبنوا له ضريحا، لتوَهُّمه أنه من الصالحين والشرفاء... لكن يبدو أن الناس لم يعودوا يولون لهذا الأمر كبير عنايتهم، فقد رموه في الجانب الهامشي من المقبرة مثلما يليق بأي راعٍ بئيس! وظل، بعد وفاته، من أبطال السِّير والحكايات في المجامع والمقامات...

24- "مسيعيد الكوديار": عَدُوّ كعبيه وصديق البيئة!

ليس غريبا أن يظهر بين الفينة والأخرى على أرض الولي الصالح "مسعود بن الحسين" نماذج من البشر يحسبهم الناس سُذَّجا أو مريضين عقليا أو مجانين فاقدين لعين الصواب أو بُلَهَاء ذهب طاعون "الفقصة" بألبالهم (مِقْوَد العقل)... وما هم، في الحقيقة، إلا حكماء في نظر ما أتى به نيتشه وفلوبير وروسو..! فغالبا ما يعرفون ببعض السمات التي تكشف غريزة الطيبوبة عند جنس الإنسان، بعضهم يعذب نفسه بطريقة مجوشية على شاكلة البوذيين، وبعضهم يحمل خصيصات الطبع الآدمي الرفيع، وإن رفض العيش على نمط البشر بشكله العادي؛ مما يستدعي استغراب الناس وحيرة (الحفظان) من

أبناء وحفدة الولي والمتمسحين ببركاته. إنهم يعيشون في عالمهم الغامض، لا يفتتنهم عنه المحيط؛ بما فيه من أشكال المتعة والفتن!

لا يعيرون اهتماما لاستفهامات من حولهم، كأنما لا يرون ولا يسمعون؛ صمٌّ بكمٌ، فهم لا يقشعون..! تماما، هذا نهج "مسيعيد" في الحياة، ينسج من غرابتها للناس حديث المساءات بمقهى "الأفراح" أو مقهى"الرياض" أو أي مقهى شعبي يحتشد بالقمارين والحشاشين وعاشقي لعبة الورق (الرونضة)، كما تسللت أخباره وطرائفه إلى الدواوير والقبائل المجاورة حتى أضحى نموذجا متفردا لمجانين دكالة[45]؛ وغدا أسطورة حماق زمانه، ورُبَّ أحد باغتته الحكمة في غفلة؛ فصار لدى العقلاء جديرا بالتداول والشهرة، بالرغم من حداثة وفوده على المنطقة.

"مسيعيد" هذا سيء الحال، رث الملابس، متسخ الثياب، كأنما دهن بالزيوت والشحوم، لكنه يظهر حسن السلوك، يكاد يرفع رأسه حياء، يتسول بأدب، ولا يحرج الناس، يشير بسبابته فقط. من ملامح الشخص يحدد رد فعله، فإما مستفيدا أو منصرفا دون انزعاج! ومن صفات تفرده أنه يحمل كيسا يجمع فيه النفايات والأزبال التي تملأ الزوايا والأمكنة، فحيثما توجهت -على جنبات الضريح- تستقبلك رائحة تزكم الأنوف، وتضيق الخاطر؛ وتنفر السجية!

والأغرب من هذا أن "مسيعيد" يبعدها عن محيط القرية ويرميها في المكان المخصص لها؛ في حين أن من يدّعون لأنفسهم الصلاح

45_ دكالة: سهل فسيح يمتد على الساحل الأطلسي، ويعرف بكونه المنطقة الأكثر غنى من حيث التواجد الصوفي، حيث احتضن مركز مشتراية الشهير الذي تخرج منه آلاف الأولياء الصالحين.

وقوة البصيرة ورجاحة العقل، يُلقون الأزبال حيثما اتُّفق؛ دون أن تنفعهم حكمتهم في ردع هذا الانتقام من الطبيعة، ومن جمالية المدينة وبهاء القرية. فمن هو العاقل ومن هو الأحمق؟ والأشد إحراجا أن "مسيعيد" يلتقط ما يرميه هؤلاء بفرح غامض مسفرا عن ابتسامة مريرة يلفظها في وجوههم ساخرا... أوَ لا تكون لهؤلاء العبرة في من يسمونه شفقة "الكوديار" ليغيروا سلوكياتهم هاته؟؟ سمَّوه "الكوديار" لأنه يقطع عشرات الكيلومترات يوميا برجلين حافيتين، متنقلا بين الأسواق الأسبوعية، متأبطا كيسه البلاستيكي لا يُؤْنِسُه سوى دخانِ سجائره التي يلفها من الأعقاب المرمية في القمامة، لا يهمه متى يصل أو إلى أين!؟ سريع المشي بشكل ملفت! طاحونة تسحق الطريق، تسير لتعد الزمن بخطى حثيثة، كأنما تروم بلوغ غاياته القصوى. فما أصدق المثل السائر القاضي بأخذ الحكمة من المجانين!

25-" الطّرّخُوي":

اصطنع الجنون ليتخلص من عشيقاته

"الطويهر"... هكذا كان يسميه أهل البلدة تصغيرا لاسمه الأصلي "الطاهر"! هذا الإنسان النحيف مثل الظل، درويش بامتياز، لكنه سيد المسافات، وصانع المهازل. "الطويهر" كلما هزمه الزمن، خلق مسرحية من مسرحياته الكوميدية الرائعة. إنه إنسان متخاذل، عاجز، خمول، لا يقدر على العمل، يحب أن يعيش على حساب الآخرين،

ويكره التعب... لا يسلك سوى الدروب السهلة التي تؤدي إلى "الزرود"، لكنه غير ميال للعنف والبطش والسلب.

كان "الطُّرخوي" يستعمل الحيلة للاستحواذ على شيء ما يجلب به قوت يومه. لم يكن يهتم بما يقال عنه، ذكي للغاية، ولسوء الحظ، كان يستعمل هذا الذكاء لمصالح وهمية ذاتية. كان متزوجا وله أبناء، ويقطن منزلا حقيرا بأحد الأرياف الدكالية العريقة، ولما تشتد به الفاقة، يخترع حلا للخروج من أزمته. فكم من مرة تصنع العزوبية وذهب إلى الحلاق، ولبس الكوستيم العصري ووضع النظارات الواقية، ليظهر بمظهر أشبه ما يكون بمظهر أبطال هوليود (ستالوني، إلفيس...)، ثم يطارد نساءً لا بأس عليهن ماديا، فيتزوج إحداهن ليستولي على أموالها وثرواتها، ثم يتصنع الحمق والجنون، فيمزق ملابسه ويدمي أطرافه، ويتشقلب في الطرقات والأزقة المحشوة بالناس، ويشرب "الجينكا" ويسب الكل...! فيتحايل عليه الناس، ليضعوه في خلوة ضريح السيد "مسعود بن الحسين" أو "بويا عمر" أو "سيدي رحال"، فلما تزوره الزوجة الأولى يقول لها "لا بأس عندي لا تحملي الهم، فقط عليك برعاية الأولاد!" وحين تزوره الزوجة الثانية يُكثر من حركاته البهلوانية، ويزداد صياحه مثل عنز جائع، ولا يهدأُ روعه إلا حين تذهب...!

تكررت هذه القصة مع "الطويهر" مرارا، حتى أن ناس الضريح كلما أتى "الطرخوي" مجنونا يعلمون أنه صنع حكاية جديدة لجلب المال، وتزداد القصة كوميدية؛ عند ما تيأس الزوجة، وتغسل يديها منه، وتنصرف عنه، حيث يلبس "الطرخويا" أحسن ما يملك، ويحمل حاكيا جديدا، ثم يتجول، بالقرية، متصنعا لغة أخرى غير لغته

الأصلية، أقصد لغة فيها الفصحى المشوهة والفرنسية الملوثة، وفيها من السخرية باللغة الشيء الكثير...! كل ذلك يحدث، والناس يتفكهون ويقهقهون، ويصفقون للطويهر الذي يتحمس أكثر لارتكاب حماقات أشد فظاعة...!

كان "الطرخوي" ممثلا مسرحيا لم تُكتشفْ مواهبُه، فقد كان يمثل في مناسبات عيد الأضحى "عائشة الحمراء" ويلبس قناع "ليهودي" و"السبع بولبطاين" ويعزف على الكمان والناي، ويرقص... عهدناه متعدد المواهب... شديد المكر والحيلة في انتزاع كل مكاسبه... وبالرغم من أنه كان ظريفا وفكاهيا، إلا أن الناس كانوا يعاملونه بحيطة وحذر، خيفة السقوط في أشراكه الملتوية.

بدأ "الطرخوي" الآن، يشيخ، وبدأت عظامه تثقل، لذلك، لم نعد نسمع من حكاياته شيئا... ومع أن الشخص تحتاجه روتينية الزمن البدوي، ليصنع الناس كوميديتهم، هناك بشكل خاص... لكن للأسف، ندُر مثل هؤلاء في القبيلة... فعاد الضجر والفتور ليطغى على المكان.

26- "ولد الشرقاوية": عيشة نكد وجنس حرام وبحث عن شفاء مستحيل

"ولد الشرقاوية" رجل ضخم البنية، ذو لحية كثة علق بها التراب والوسخ، فأصبح وجهه مُتشحِّما بملامح مقززة. يرتدي جلبابا بنيا يظهر عليه سرب القمل يرعى في واضحة النهار، وتملأ وجهه

التجاعيد. ورغم استدارة محياه المتكور الضخم، ورغم أنفه المضغوط، فإن ابتسامة غادرة تشف عن بسمة المغمور بالفزع .. مثله مثل الآخرين، أتى بحثا عن شفاء متوهم، لكنه ما زال يخفق مثل طائر كسير بين براثن الحمق. حمقه الصامت الساحر من القيم، لا يعترف بالسلالات ولا بالمنابت. ولذلك، فقد لطخ أمومته بالجنس الحرام... ربما ضبطه الكثيرون، وهو يمارس عبثه الجنسي البهيمي على أمه العجوز التي لم تسمح لها كبدها وعواطفها بالتخلي عن فلذة كبد لم ترزق غيرها، فتحملت، مع الكبر، متاعب الإنفاق عليه، وهو مخبول العقل لا يطمئن إلا للمهاوي، تمارس الشحاذة، وتتسول لكي تجمع ثمن الكراء والمصاريف. وإذا لم يتيسر لها الأمر تبيت وإياه على هوامش الطرقات، وتحت شُرف المنازل، وحيثما اتفق!

يأكل "ولد الشرقاوية" بشراهة البهائم، ويتغوط بجانبه. عدو عتيد للأطفال. يضع بقربه حجارة ضخمة، وكلما مر طفل بجانبه، يهوي عليه بكل ما يملك من قوة، لكن الكبار كانوا ينتقمون منه، لأنه كان سريع التوتر، ثقيل الحركة، يتحرك "ولد الشرقاوية" مثل قنفذ، ساخرا بابتسامته الصفراء من الأشياء والعالم. هادئا في أغلب الأوقات، لكنه، من حين لحين، يثور، فيشتد بأسه ويبتدئ بأمه المسكينة التي تتحمل سخطه فيدمي وجهها المتغضّن؛ الكثيرَ التجاعيد، وتخاف أن يصيب أحدا ببأسه الشديد؛ فتستعين برجال غلاظ شداد لتهدِّئ من روعه وجنونه... ولا يفلح القوم في ردع هيجانه إلا بعد ساعات... يُحيط به الهراوات والحجارة وأسلحة بيضاء ليرهب بها المارين من الزقاق... ومع مرور الزمن، أصبح "ولد الشرقاوية" أمثولة تضرب

للبطش وللمحرّم الجنسي... وليس غريبا أن نجد بعض الذين يُكَنون باسمه في الدواوير يشمئزون ويثورون ضد كل من يردد اسمه أمامهم.

ما يزال "ولد الشرقاوية" يعاقر البرد والخلاء، ويعيش في العفونة والقذارة لا يؤنسه، في وحدته، سوى برازه وذنوبه وآثام أمه التي تشهد، بعينين ذابلتين، على الذي يحصل ويحصل... مضحيّة بكل شيء من أجل أن ترى ابنها يوما في عناق مع قلبه وعقله، ماثلا بين يديها بكل حواسه ومشاعره.

27- "شوطح":

عاش قويا ومات ذليلا

كان "شوطح" يرتدي "قشابته" ويخرج إلى الليل المخيف حينما تنام الشجرة والحجرة، متأبطا سيفه المسلول، باحثا عن طرائد الليل. لم تكن قوته تشجعه على ممارسة نشاطاته الفلاحية والحرفية فحسب، بل كانت تحفّزه على المغامرة والسرقة وجني آثام الليل الطويل.

وبعد وفاته، ظل الناس يتواترون حكاياته ومغامراته المجنونة في ليل الاستعمار وزمن الحماية، لأنهم لم يكونوا يستطيعون تناقل أخباره في حياته، مخافة أن يوجه إليهم بوصلته الجحيمية، فقد احتفظوا بها إلى ما بعد موته...

شوطح كانت له قوة بغل، يركض حافيا دون أن يحس بالعياء أو ألم الشوك والأحجار الناتئة. له سالف طويل... تصوروا رجلا له مثل هذا السالف في الثلاثينات من القرن الماضي! عضلاته مفتولة وقوية إلى

درجة أنه يستطيع حمل ست "عبرات"[46] من القمح على رقبته، ويسير بها مسافة طويلة فوق "الحد"[47] الحجري الضيق دون أن يسقط، حتى لا تترك أقدامه أثرا يحيل عليه في صباح اليوم التالي. يُحكى أن "شوطح" كان إذا وطأ، بقدميه الحافيتين، شوك الصبار "الضربان" يكسره، وهو يتضاحك بصوت عالٍ كأنما يلعب بقطع "الريشبوند".

وحدث أن صادف، ذات ليلة، من لياليه المجنونة، فكرة حمقاء دعته إلى سرقه إحدى عرصات المعمّر المعروف في دكالة باسم "حمر الرأس" فضبطه الحراس، وكبلوه من رجليه ثم ربطوه بقيود حديدية، وانصرفوا كي يستشيروا سيدهم "حمر الرأس".

ضاقت الدنيا ب"شوطح"، فراح يتحسس، في حلكة الليل، طريق الخلاص. وكان، من عادته، أن يتأبط سيفه الصارم البتار، ونسي الحراس أن يجردوه منه، فاستعمل سرعة بديهته، التي لم تقُده إلى خلاص سليم، فلم يكن له بدّ من بتر أحد قدميه ليتخلص من القيد الحديدي المحكم الذي سيسلمه إلى موت حقيقي حرقا بالنار. فلم يتردد شوطح أمام خوفه من شبح الموت القادم من كل الجهات، في بتر نصف قدمه الخلفي، ثم راح يعدو في الحصائد والبراري والأحجار الناتئة والسهول الصلبة، غير عابئ بالدم الغزير الذي يتفصد من قدمه ويسقي الأرض، وهو يكابد الألم ويتحمله إلى غاية أن وصل إلى القبيلة، فلازم الفراش مدة طويلة دون أن يعرف الناس سبب ذلك...!

46- العَبْرَةُ آنية لقياس الحبوب.

47- الحد هو حاجز من الحجر يميز به البدو الحدود بين الضيعات والحقول.

سماه الناس بـ"شوطح" لأنه كان يرقص في الولائم والأعراس رقصة مجنونة (كان يلوز بمؤخرته كالمحصور بحصى التين الشوكي) يرقص مقرفصا، ويبربر بشاربيه الكثين، محدثا رنينا كصوت محرك الشاحنة، والجمهور يرقص له ويشجعه ويهتف باسمه "شوطح، شوطح" سيئ اللعب. الناس ترقص وهو يندب، العرس واقف وهو يشطح شطحة الكلب"...

ما تزال بطولات "شوطح" تحكيها الألسن في مجامع أهل الدوار، يتسلون بها مثل الأساطير القديمة... "شوطح" بعد أن بلغ أرذل العمر، اشتدت به آلام الشيخوخة، وأصبح يعيش على الذكريات والأمجاد المنصرمة. وفي طريقه إلى السوق، فتك به الحر، وانقطعت به السبل إلى الماء، فمات عطشا، قبل أن يلحق حبْواً إلى شجرة تين ظلت، إلى الآن، تسمى باسمه...

إن القوة جنونٌ لا يروَّض، وتقود صاحبها، غالبا، إلى متاهات الحمق!

-28- "حـــــوق لـــــوق"

الشيطان الإيروتيكي... وقاهر الأطفال بالخوف

يلتصق هذا الاسم بالذاكرة، كأنما سُكَّ بماء الذهب، لأنه يرتبط بالبدايات العميقة والطفولة المغتصبة. نشأنا في قرية قُدِّر لها أن تكون ملاذا للمجانين، وقبلة للمعتوهين وساحة لا تضج سوى بالصخب والرعب والفزع!

كنا نمر بمحاذاة ضريح السيد مسعود بن الحسين العامر بهاته النماذج البشرية المستعدة لارتكاب حماقات هائلة وفي أية لحظة! ومن أشد هذه الوجوه رهبة في تاريخ هؤلاء الذين عبروا جسر الجنون والأسْر بباحات الضريح، أتذكر، وبنفس درجة الرعب الآن، "حوّق لوّق" (الواقع أنني تهربت كثيرا من محاولة تذكر هذا الاسم، لكن شلة من مجايليه ألحوا علي في سرد حكايا جنونه (وما أكثرها!)، لأنه يمثل، بحق، جزءاً من عناصر كثيرة جرحت طفولتنا البائسة، وزعزعت كياننا الطفولي بسكاكين الترهيب والتخويف... هذا الوحش الآدمي الذي فتن جيلا من الناس، آنذاك، وأقام من حولهم حومة من الفزع والهلع لم تنته إلا بغيابه. "حوق لوق" إنسان قصير القامة، بارز عظام الوجه، مشتت الملامح، ذو بنية قوية تشبه بنية ثور هائج. وهيهات، فحينما تشتد به لوثة الصرع، لم يكنْ يقوى على كبح هيجانه أحد... كسَّر قيودَ الشرفاء والحفظان، وتسلق ليلا جدار الخلوة، وهرب. لا تَصدُّ جنونُه حتى الجرارات والجرافات... يهرب الكل والويل لمن تخلف ووقع في قبضة "حوَّقْ لوَّقْ..."

ويبدو أن هذا الشخص العنيد قد أفسده مزاجه الصعب الملوث برواسب الحرمان الجنسي، فكانت عقدته جنسية محضة. إذْ كان، دائما، يتحدثُ مع نفسه بصوت عالٍ، عن الجنس. ولا يصدر عنه سوى كلام فاسد قبيح يمتح قاموسه من حقل الإيروتيكا. وغالبا ما كان يتوقف بالقرب من حائط ويقوم بحركات جنسية مثيرة للاشمئزاز، متفننا في دفع وتقويس وسطه مثلما لو كان يمارس الجنس، واقفا، مع شبح... وحينما يناديه الأطفال (حوق لوق) [جاء هذا الاسم كتعبير

عن هذه الحركات الجنسية] يطاردهم بسرعة جني قاهر -ذكرنا السمن والعسل- فيفر الأقوياء، وغالبا ما يتخلف الأصغر سنا والضعفاء.

مرة؛ وقع في قبضته طفلٌ تعثر. فأخذه من جهازه التناسلي، وشده بقوة ودلَّاه في حفرة عميقة ملآنة بالماء العكر، والطفل يصيح مستنجدا، و"حوق لوق" يصرخ في وجهه بتشفٍّ قاسٍ: (والله لا أطلق عُمْرَ أمك ولو تأت ستة وستين "دجيب"[48]!) وكانت حلقة من الناس يتابعون المشهد في رعب وحذر صائحين (واحوق لوق جنب الحيط كيتفلق...). فهم كانوا يعرفون أنها الطريقة الوحيدة لتخليص الطفل! يطلق "حوق لوق" (الزيت) [وكان هذا هو لقب الطفل] ويطارد الآخرين حَنِقاً، لكن الطفل كان قد أغمي عليه...

وكثيرا ما كان يختطف سكينا من بائع النقانق أو بائع حبة حلاوة والكاكاو، ويبدأ في العبث بها مثيرا الذعر في صفوف التلاميذ الذين كانوا يقضون فترة الاستراحة في جنبات المؤسسة. حيث يدمي أصابعه وساعديه، مقهقها بصوت رعدي مجلجل في أصداء المكان... وتكاد الحركات الإيروتيكية التي يقوم بها، بجانب الأسوار، تكون اعتيادية لتتحول، في الغالب، إلى حركات ارتكاسية وهمية، حيث يتتبع "حوق لوق" مؤخرات النساء المكتنزات البارزات الأنوثة، ويستغل مسألة خوف الناس منه ومن بطشه، ليعري جهازه التناسلي، ويستمني أمام الملأ! ومرارا، كان يتحلق حوله الناس، وهو يمارس الجنس على الأتان، دون أن يعبأ بالآخرين في مشهد هزلي باذخ...!

---

[48]- سيارة دجيب في المغرب إشارة إلى رجال الدرك

وبعد أن يفرغ من نزواته، يجمع سراويله (غالبا ما تكون كثيرة)، وينصرف، فيصيح الناس من هناك وهنا: (وا حوق لوق... وا حوق لوق مشى يتسوق!)، فيحمل الحجارة، ويبدأ في رجم الناس، بشكل عشوائي، مثل شيطان مارد...

تُرى هل يموت شخص بهذه الصفات، وبصفات نستحيي أن نذكرها؟

أبداً. إنه كيان خاصٌّ يستحق أن يعيش في الذاكرة على الأقل!

بلدة مشتعلة

- لقد افتقد الأستاذ عقله، ورُمي في خلوة نتنة بضريح "سيدي مسعود بن الحسين"يلقي الأطفال الصغار الحجارة

قال "بيريك" وهو يدق باب بيت الفقيه المختار بقوة.

وضع المختار الكأس مصدوما، ووقف يرتعد من وقع الخبر الذي فاجأه هذا الصباح. نظر في عيني "بيريك"، كانتا جمرتين متقدتين، بريقهما الحاد يشي بإحساس منهار بالعالم.

- أواه.

قال المختار، محتارا، وهو يتأمل حالة "بيريك" الذي لم يكن وجهه متفحما يوما، مثل الذي هو عليه الآن، ولم يكد يصل الباب، حيث يقف الرجل حتى وجده اختفى تماما.

عاد المختار إلى مكانه. استلقى، وراح يتأمل السقف. كيف لرجل وديع، وأستاذ رزين أن ينتهي به المآل إلى هذا الوضع السيئ، وهو ما يزال بعد في بداية المشوار؟

كان شريط ذكرياته معه يعبر متثاقلا، تاركا، في نفسه، صدى حزينا مؤثرا. غير أن دقات مماثلة على الباب، عادت لتقطع هذا الشريط. لقد عاد "بيريك" نفسه، بعد أن غيَّرَ ثيابه، ووضع عمامته المشرقية، وتوضأ، من جديد، كي يؤدي الوقت حينما يدركه.

قال له المختار:

- ادخل. فرد عليه بنبرة معاتبة:

- أين أدخل أو لن تذهب لتزور صديقك في الخلوة؟

سكت المختار برهة قبل أن يرد:

- لا قدرة لي يا "بيريك" على أن أرى صديقا في محنة، اذهب أنت، وأنا سأصلي من أجله من هنا! سيُشْفى بحول الله.

نظر إليه "بيريك" متحسرا ثم استدار واختفى!

في الخارج، كانت زوابع تدور. الدُّوار[49] فتيل قابل للاشتعال في أية لحظة، وحدث منذ أن غاب الأستاذ عن الدُّوار، وعن صديقه المختار، ما يلي:

* اغتصب أحدُ الحمير، بشكل فظيع، أتانا بكرا، بعد أن اغتنم فرصة غياب أهلها ليلا، ونوم صاحبه، فقطع الحبل، ونهق ثم انطلق مثل السهم نحو إسطبلها المفتوح. وكانت مربوطة بحبل متين في وتد، فتهيأ له الجو لفعل فعلته الوحشية. ولما عاد صاحبها، وجدها في حالة يُرثى لها، فأرغى وأزبد، وهاجم أهل الحمار. وقامت زوبعة من السب والشتم، كادت أن تنتهي بجريمة قتل، حينما قال صاحب الحمارة المغتصبة:

- أقسم أنني سأؤذب ذاك الحمار. لقد تجاوز حماره، بتطاوله على حمارتي، واغتصابها!

فرد الآخر هازئا:

49- حي قروي يضم قبيلة/ تجمع سكاني غالبا ما تربط بين أفراده علاقة قرابة راسخة الجذور.

- سر، عفاك الله عنك! ما الذي ستفعله؟ أراك هائجا مثل البحر، وكأن الحمار اغتصب لك "كوادالوبي"!

فدخل الأول داره مهتاجا، وخرج مهرولا، بعد أن تسلح بهراوة، قاصدا صاحب الحمار. غير أن لطف الله تدخل وستر، حينما هبَّ "بيريك" وصديقه "العربي" لفك النزاع، وحضرتني، في هذه اللحظة المثلة، التي تقول:

- "واحد يفعلها وواحد يؤدي ثمنها!"

* كما أن الفترة نفسها، عرفت اتهام رجل لرجل آخر بكسر الحدّ بين ضيعته وضيعة جاره. فتلاسنا وتسابا، وحضر العادي والبادي من أجل فك الخصام، ومنع الفتنة من التطور، خاصة بعد تدخل النسوان في الموضوع!

* وَجَدَ أحدُ رجال القبيلة ابنته مختلية في "جنان الكرمة" بالوادي، رفقة أحد شباب القبيلة، فثار، من شدة الغيرة، وهدد البنت بالذبح، ثم طرد الأم بسبة تسترها على فضيحة البنت وعلاقتها بالشاب. وانتشرت رائحة الفضيحة في البلدة، ولم يزح غمامة الصراع غير الزواج الذي تم قسرا من أجل غسل العار.

* استيقظت القبيلة، ذات صباح، على إيقاع حفر قبر من الروضة المعلومة بمقبرة "سيدي عياد السبع" من طرف ثلة من الفقية الدجالين، بذريعة البحث عن كنز من اللّويز الحر الذي يعود إلى عهد السعديين، مما أشعل فتيل الحزن في نفوس أهل القبيلة الذين مسُّوا في كيانهم، نتيجة إلحاق الأذى بمقابر أهلهم الراحلين، وهي مسألة مقدسة لدى البدو.

* اجتمع كبار الجماعة بالقبيلة، وقرروا جمع مساهمات نقدية عينية من أجل تنظيم حفل بضريح "سيدي عياد السبع"، احتفالا وتكريما لأمواتهم الذين لحقهم السوء، بسبب الحفر الذي طال المقبرة من طرف مجموعة من الدجالين المحتالين، وكذا التماس لسنة ماطرة تنسيهم السنة الماحلة التي انصرمت مع كل ما سببته من دمار وخيبات في النفوس!

* اتَّهم رجلٌ زوجته بالحمل سفاحا من رجل آخر، فغضبت الزوجة، وأحسَّت بالظلم والغبن، فتناولت جرعات سامة من عقار بلدي يوضع لإسقاط الحمل، فتضرَّرت بفعل ذلك كبدها وتدمرت، فتوفيت نتيجة لذلك، بعد مدة قصيرة، تاركة حسرة كبيرة في نفوس الناس الذين عرفوها بالالتزام والقوامة والسلوك الحسن.

في خلوة سيدي "مسعود بن الحسين" انزوى الأستاذ مثل جنيّ منهوك، غائر السحنات، قاتم اللون، عائم الرؤى! ظل "بيريك" يحدق في وجهه من الفوهة الضيقة للخلوة التي تشبه كهفا عميقا، فوقه كرمة تين، لم يرفع رأسه في وجه زائره، رغم أن "بيريك" ناداه باسمه عدة مرات! كانت عيناه تحفران في الأرض الرطبة العفنة عن شيء ما، بعد أن اختلطت برائحة البراز القادمة من التحت.

- كيف يمكن لهذا الشاب الودود المثقف أن يتحول إلى معتوه يهوى العيش في هذا المكان القذر؟ اللعنة على الدنيا: من لم يخرج منها لم يسلم من عواقبها (!!...).

ردد بيريك في قرارة نفسه مستاء.

بعد أن يئس الرجل من إمكانية تحدث الأستاذ الجامعي المخبول معه، جمع وقفته وقصد، وقصد أقرب حانوت. اشترى خبزة ووضع داخلها محتوى علبة "طون" من نوع "سيفيانا". وطلب من البقال قنينة موندا كوكاكولا المحبوبة من طرف الأستاذ، ثم جلب علبة سجائر. وضع الكل في كيس من البلاستيك الأسود ورماه، ذاهلا، داخل الفوهة، فهبَّ الأستاذ المعتوه من زاويته، وانقض على العلبة مثل نمر جائع. ثم التهم ما بها دفعة واحدة دون أن يتنفس.

كان "بيريك" يرى مرعوبا ويحوقل:

- "الله يا وليدي! لا تستحق هذا العناء، الله يأخذ الحق في من كان سببا".

أشعل المعتوه -هو في النهاية شخص آخر غير الأستاذ المعروف- سيجارة، ثم راح يمصُّ الدخان بغرابة، وعند ما انتهى، أشعل من نارها سيجارة أخرى، ثم رفع رأسه باسما إلى الزائر، وحرك رأسه، كأنما يشكره، ثم عاد إلى تأمله من جديد، وحديثه الصامت مع الأرض يحكي لها همومه وأشجانه!

عاد "بيريك" يجرُّ خلفه رعبا حقيقيا، يرتجف من وقع ما رأى بأم عينيه ما حدث لشاب يمتلك مواصفات الأستاذ الرزين المتحلق، ويتأمل مقالب الدنيا التي تخدع الناس بسحرها وملاذّها ونزواتها وملاهيها... كان كسير الروح، غابت عنه ملامح الدعابة المعروفة عنه. لكنه، لما عاد إلى البلدة، وجدها مشتعلة باللغط: سوق من النزاعات التي لا تنتهي حول الأرض والتوافه.

وكان المؤذن لحظتها، ينادي للصلاة، ولا أحد يسمعه! كل في عالمه الخاص!

يجن الليل، فترفل "كطرينة" في ظلام بهيم، قلما يستطيع أن يضيئه قمر. وفي ليل الخوف والتوحش، تمارس الكائنات رغباتها تحت سقوف واطئة. لكن، هناك، في الخلوة، رجل وحيد خارج رغباته، يؤدي ثمن من عبروا هذا المكان، ذَنْبه الوحيد أنه جاء، من بعيد، ينقِّبُ عن سيرة أهله الغائبين، وعن تاريخ بلدة التهمها النسيان!.

فوضى

أشعل "سي المختار" المذياع ليستمع إلى أخبار السابعة. ما تزال رائحة "السعيدية" التي أضاءت البيت ليلتها، تملأ المكان، وما تزال الأشياء مبعثرة هنا وهناك. وقد يفطن أي شخص أنَّ أنثى ما كانت تؤثث عالم الفقيه في الليل السالف.

كانت أخبار القتل والحرب والخطف ترد عبر الجهاز الصغير، مصحوبة بالأسى الذي ينم عن صوت المذيع: استشهاد خمسة فلسطينيين شبان برصاص المحتل الإسرائيلي الطائش أمام استنكار عربي مخجل، انفجار سيارة مفخخة بأحد الأسواق في بغداد يودي بحياة حوالي ثلاثين مدنيا عراقيا بينهم ستة أطفال وخمس نساء وثمان عجزة، تفجير إرهابيين انتحاريين لفندق ومطعم بالبيضاء يسفر عن حوالي أربعين قتيلا، وعدد كبير من الجرحى، تنظيم حفل زفاف النجمين الهوليوديين برادبيت وأنجلينا جولي بشكل باذخ بكينيا هربا من المتابعة الإعلامية، اغتيال بينازير بوتو أمام استياء عالمي، مما قد يؤول معه الوضع بباكستان عقب هذا الحدث المؤلم إلى الأسوإ، تنبؤ أحوال الطقس العالمي ومتغيرات الفلك أن الجهة الغربية لأوروبا، وجزءاً من إفريقيا، ربما يتعرض لتسونامي مرعب خلال الأشهر المقبلة، وقد أكدت جهات أكاديمية مسؤولة، التكهن معتبرة إياه ضجة من أجل التخويف ونشر الهلع، وفعلا قد بدأت جحافل الناس ترحل إلى الداخل، بعيدا عن الشواطئ، احتمالا لأية عاصفة ممكنة، شباب

إسبان يحتجون، بطريقة طريفة، في الشارع العام لمدريد، حيث يستلقون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم أمام مكتب تنظيم الاستهلاك، وحماية المواطن عقب الزيادة في أثمان بعض المواد الغذائية.

يصنع المختار برادا من الشاي، بعد أن يفرغ عليه سطلا من الماء، ويصلي صلاة يسميها ركعات الاستغفار من ذنب الزنا. يفرغ كأسا متمنيا لو كان برفقته صديقه الغامض الأستاذ المخبول الذي لم يعد قادرا حتى على زيارته. أشعل شقفا من الكيف وراح يدخن بشراهة، ويفكر مثل من حرقت خيمته البارحة. كان يفكر في مصير صديق، ومصير عباس وتقلبات الدهر، وعواقب الذنوب والمعاصي (هو أعرف بها لأنه يحفظها عن ظهر قلب في كتاب الله، ويرتلها يوميا أمام الناس في الصلاة وفي المآتم وعلى القبور...)

لكن الماء يطهر الجسد، والصلاة تطهر الروح. هكذا، كان يفكر فقيه الدوار الذي يقضي الحاجات ويقصده الناس! لكنه يعلم أيضا أن هذا التطهر يشترط فيه الصدق وعدم العودة إلى الذنب نفسه! هو في كل مرة يعلن قطيعته مع الزنا، ويقسم ألَّا يعود، غير أنه، بمجرد ما تدق السعدية أو مينة أو خدوج أو ربيعة، الباب حتى يرتجف جسده، وتتدفق الدماء في الشرايين متجهة نحو وسطه.

كان دائما يقول إن العلة توجد في الوسط، ويشير إلى أسفل البطن. ويضيف ساخرا:

- "لولا الوسطين (البطن والفرج) ما امتلأت جهنم ببني البشر"!

ثم يضحك بصوت عال، وينهي هذا الحديث قائلا في نفسه:
"المهم أن يتمتع الإنسان في حياته، قبل أن يحل الممات، فيندم عن كل دقيقة ضيعها في التفكير الفارغ في العواقب والحسابات الزائفة!

الله يعرف شغله جيدا، ولا دخل لنا نحن فيما سيكون، ولا ما سيحدث!"

أشعل المختار سبسيا من الكيف، وراح يمتص نشوان، مفكرا في الآخرة وعذاب القبر، والصراط الذي يشبه حد السيف، والنار الأكول التي تُعَدُّ للزناة في الدنيا... غير أنه سرعان ما تنسيه فتنة الجسد الأنثوي، حيث تحضر صورة جسد السعدية صاحبة الاثنين والعشرين عاما، المتزوجة بالبقال "ولد أحمد الأعرج" الذي لا يعود إلا مرة في الأسبوع منهكا!

قالت له مرة:

- تصور يا مختار، أنا أنتظره أسبوعا كاملا مع الهياج والحرمان، فأتزين وأتعطر وأرتدي لباس النوم الفاتن، وأعرض عليه أنوثتي كي يهدئ نارها، ويسد ما بي من عطش، فيأتي هذا الرجل متعبا، منرفزا! أقبل عليه محفزة فينهرني قائلا:

- "اتركيني لحالي، أنت لا تحسين بما أقاسيه من إفلاس في التجارة، وتعب، وكد في الأسواق! أنت لا تحسنين سوى الزينة والأكل والنوم!"

- ما الذي تريد أن يكون رد فعلي يا مختار؟؟ يقتلني الجوع، وتنهشني الرغبة، فأقصدك، ولا أعلم ما الذي يمكنني أن أصنعه!؟

كان المختار يستحضر ذلك متهيجا، خاصة حينما ترتسم في مرايا عينيه تفاصيل جسدها الفاتن: العينان والبياض والردفان والساقان، مرورا بالصدر النافر، والبطن المقبَّب من غير زيادة. والرائحة الساحرة التي تنسيه، منذ عبورها، العتبة، والقرآن، والقيامة، والعقاب، والشيطان...

يتذكر أول مرة جاءته!

كانت خجولة تلتف في قفطان بلدي مزوق، ولا تفارق عيناها الأرض. جاءته من أجل الأبناء: قالت له:

- أريدك أن تكتب لي حجابا يطرد عني شبح العقم (فيما بعد ستسر إليه أنها لا تريد أبدا الأولاد من رجل تافه مثل زوجها).

كتب لها حجابا، وختمه بأسماء وحروف، ولَفَّهُ ثم طلب منها أن تُنَفِّلَ به ثلاثة أيام، قبل قيام صلاة المغرب. غير أن ما أثاره، هو أنها، قبل أن تغادر، سألته مستغربة:

- أيمكن، يا سيدي الفقيه، أن يكون الرجل عقيما!؟

- صدمتني جرأتها.

قال الفقيه محدثا صديقه الأستاذ، وكان علي أن أجيبها بسؤال:

- هل تشكين في قدرة زوجك؟

صمتت برهة، فتدارك الفقيه:

- أقصد هل ينام معك؟

احمرت وجنتاها، وأحنت رأسها حياء!

فقال: أجيبيني لا حياء في دين، لا يكتمل العلاج إلا بالصراحة!

فحركتْ رأسها دلالة على النفي، ثم غادرت! انتبه الفقيه، لأول مرة، إلى جسدها الفاتن، خاصة، على مستوى السرة والوركين والمؤخرة... آنذاك، لسعه جسدها. وقرأ، في شكواها، دعوة إلى إطفاء ما يضطرم في جسدها من رغبات! ومنذئذ، استشعر جسده نارها، فلم يطفئه استغفار ولا رواه لعن للشيطان الرجيم...

وجد الشيطان المدخل المشْرع في نفس الفقيه، كيف لا وهو الخبير في ذلك؟ فتهيأ له جسد السعدية في أبهى صورة، ووضعها قبالة عينيه، في اللحظات التي يستيقظ فيها ضميره، ويبدأ في النشاط، خاصة، في وقت الدخول في الصلاة!

فقدت السعدية، مع الوقت، حياءها وصوابها، ولم تجد غير طريق الفقيه كي تسد الفراغ الذي يتركه غياب زوجها وعدم تفهمه مشاعرها ورغباتها. لم تكتشف نفسها أنثى إلا مع الفقيه. وبالرغم من كونه غريبا عنها، فقد اعتادت على جسده، بل حفظت رائحته عن ظهر قلب. وكم تمنت لو كانت زوجته في الحلال! وكم مرة، تمنت لو استطاعت أن تنتفض ضد زوجها وقيم القبيلة، فتعلن عن عصيانها، وتطلّق الزوج، وترحل إلى الحضن الذي تجد فيه ذاتها! لكن هيهات، فمجتمع ذكوري مثل الذي تعيش فيه يرفض مثل هاته الأعمال، ويعتبرها قلة الحياء، وقد تموت، إن هي جهرتْ بمثل هاته التفاهات!

كثير من النساء هنا، يعشن على الجمر، وترى في وجوههن ندوبا غائرة لم تستطع أن تبوح بها ألسنتهن. كثير منهن، في مثل هذه القرى

النائية، يتزوجن قهرا، ويمارس عليهن الجنس الشاذ قهرا، ويستغللن حتى من طرف أقارب الزوج دون أن يستطعن الجهر بما يعانين! ف"فيطونة" التي ضاجعها الفقيه مرة، حكت له أن زوجها يخرج، مع الفجر، إلى السوق؛ فيتسلل إلى فراشها أخوه الصغير، ويضاجعها عنوة. وفي بعض الليالي التي يكون فيها الزوج غائبا، ينام معها الأب دون تحرج؛ مهددا إياها بالطلاق، إن هي تمنَّعت، فتدعن لأنها تعرف أن زوجها سيصدق أباه، ولن يصدقها هي أبدا حتى ولو أقسمت له بحليب أمه الراحلة. ومن النساء البدويات من لم تشعرن بالرغبة الجنسية قط مع أزواجهن! الشيء الذي يجعلهن لا يعرفن الجنس إلا حركات بهلوانية يقوم بها الزوج لإيلامهن من أجل الحصول على أبناء. مثل ذلك، حكَتْه "روييعة" زوجة "الفاطمي" بائع المِلْح للفقيه، عقب مضاجعته لها، حيث شعرت بإحساس غريب، وتمنت أن يكرر ذلك العمل، مرات عديدة، قبل أن تتسلل إلى بيتها، وقبل أن يتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الصبح.

كان الفقيه يضحك بصوت عال، وهو يتذكر كل هذه القصص، ويفخر بكونه رحمة من السماء نزلت على نساء القبيلة كيْ تنبههنَّ إلى الأنوثة المنسية في أجسادهن الحلوة!! تلك الأراضي البور الخصيبة التي لم يسلكها فلاح، ولا خطها محراث!

استيقظ الأستاذ مفزوعا على صوت أمه العجوز، وهي تناديه للفطور.

- هيا قم يا ولدي جاء الصباح. لقد تأخرت، طلبتك ينتظرونك...! قم! إخوتك ينتظرونك على الفطور!

وجد عظامه مهروسة. كان كابوسا فظيعا. كل أطرافه مضغضغة. لن يذهب إلى العمل هذا الصباح. قام متلكئا إلى الحمام. بول حار يتصبب من متانته مصحوبا ببخار كثيف. رائحة فمه كريهة، ملوحة ودم متقيح. رأسه ثقيلة مثل قبة، وأفكاره مهلوسة.

فتح صنبور الماء الدافئ وَوَطّنَ جسده تحت الماء المتصبب دون حماس ولا رغبة.

كان أخوه وأمه ينتظرانه باسميْن. أمامهما قهوة بالحليب، كرواصة، زيت الزيتون، خبز وعسل وشاي... حاولا أن يقحماه في جوهما المرح، غير أنه كان مشغولا بكابوسه الليلي الفظيع، وبكطرينة، وبمحاضرة الطلبة التي تنتظره تحت عنوان "سيكولوجيا الجنون في الثقافة العربية الإسلامية، وما يحيط به من طقوس".

ابتسم أخيرا، وبدأ يتناول قهوته الصباحية...

النهاية



"صابون تازة" هي الرواية الأولى للكاتب والناقد المغربي إبراهيم الحجري. وهو عنوان مستلهم من الخطاب التراثي الشفهي المغربي الذي يتداول بقوة هذه العبارة تدليلا ساخرا على قذارة الواقع واتساخه وما يعتمر به من تشوهات ومسوخ غير قابلة أبدا للمحو أو الغسل حتى ولو بصابون تازة الشهير قديما بجودته.

يقدم لنا إبراهيم الحجري في هذه الرواية بورتريهات المهمشين وسيرا موجزة عن كثير من المنسيين، وصناع الفرجة المجانية، باعتبارهم أسماء بقيت عالقة في الذاكرة بأفعالها وتصرفاتها الخارجة عن المألوف وما يتميزون به من تهميش في واقع هابط ومنحط وقذر يصعب غسله ولو بصابون تازة.

"صابون تازة" هي تاريخ لمن لا تاريخ لهم.

